رجل مغناطيسي

طبع في مصر

رجل مغناطيسي

مجموعة قصصية

سميرة طباسي

النخبة
للنشر والطباعة والتوزيع
2019

الطبعة الأولى – عن النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

2019 – 1441

رقم الإيداع: 17929 / 2019

الترقيم الدولي: 978 – 977 – 838 – 382 – 9

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

النخبة

6 شارع رجاء عبدالرسول، المتفرع من شارع وادى النيل

أمام سور نادى الزمالك– الجيزة – مصر – 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

الإهداء

إلى أمي وإلى أولاد أخي الغائبين عن عيني، إلى كل صوت غير مسموع، إلى كل من لم تسعفه موهبته، أو ظروفه للتعبير عن مشاعره وأفكاره وتجاربه.

أهدي هذا الكتاب.

المقدمة

سعيدة بصدور مجموعتي القصصية الثانية، التي حرصت فيها على التنوّع في الأفكار، وفي طريقة الطرح.

قد تبدو لك القصص وجباتٍ خفيفة، ولكنها ستزداد دسامة مع إعادة قراءتها، مع تأمل ما بين سطورها.

قلِقة من رأيك عزيزي القارئ، وحريصة على معرفته، على بريدي الإلكتروني

Fspbrh2012@yahoo.com

1 - جدار برلين

هي: أريد التدرّب على ركوب الخيل.

أمها: لن تفعلي، أنا أرفض، هذا موقف والدك أيضًا.

- لماذا؟

- تعرفين السبب.

هو نفس السبب الذي منعها من ركوب الدراجة، من القفز، من لعب كرة القدم، من الجنون منذ الطفولة، من الجيد أنه سُمِح لها بالعطس وبالكحة، وبالإصابة بالإمساك.

ها هي تعمل منذ عامين، وما زال جدار برلين يتحكم في حياتها.

- أية سقطة قوية قد تمزقه، لن يفهم زوجك الأمر، هل يرضيك أن يشك في أخلاقك؟

- ليذهب إلى الجحيم.

هذا النوع من الحوار، يذكّرها دائمًا بحادثة جرت منذ سنوات، سقطت جالسة من على كرسي مرتفع، ألم شديد في أسفل ظهرها، هرعت أمها إلى طبيبة نسائية، تساءلت المصابة: أليس علينا الذهاب إلى قسم الأشعة؟!

أمها: هذه أولًا.

بعد أن اطمأنت أمها أن جدار برلين لم يسقط ولم يُصب بشيء يُذكر، ابتسمت بعد مدة من تقطيب الجبين، وفزع، هدأت تمامًا قبل أن تتأكد من سلامة ظهر ابنتها.

أمها: تزوجي وافعلي ما تشائين.

لطالما كان هذا هو رد أمها عندما تطلب ممارسة ما تحب، ولطالما كان المفتاح، تضعه في يدها، ولكنها لم تستخدمه؛ كيف تفعل وهي لم تدرك أنه المفتاح؟!

إذا كنت تخشى خسارة شي بشدة، اخسره، وتخلّص من خوفك.

زواج سريع وطلاق أسرع.

2 - رصاصة

عمي الأرمل، الذي بلغ السبعين من العمر، عثر على امرأة تقبل به زوجًا، مُطلّقة لا أولاد لديها.

لا بأس حتى الآن، الخبر عادي، هو يبحث منذ ثلاث سنوات، بدأ بعد وفاة زوجته بشهرين، أو أقل.

- أنا معترضة.

أبي: أنا أيضًا.

- هل أبلغت عمي برأيك؟

- فعلت، لم يكترث، يبحث منذ وقت طويل.

- لقد اشتراها.

- ليس من هذا النوع، تعرفين حرصه على المال، كما أن والدها ميسور.

- لِم هذا الزواج إذن؟!

- اسأليها....

بعد هذه الكلمة، التفت إليّ بملامح صارمة، وقال محذرًا: إياك أن تفعلي، سنذهب للتهنئة وكفي.

- بل للعزاء.

هناك احتفال، هو أقرب إلى اجتماع تعارف بين العائلتين منه إلى احتفال، رفضتُ الذهاب، أبي وأمي ألزماني بمرافقتهما.

(كل إنسان حر في حياته) هذا شعار أبي وأمي، وشعاري أنا أيضًا، إلا إن كان سيؤذي نفسه.

الرجال والنساء في مكانٍ واحد، النساء متجاورات والرجال كذلك، الجميع يهنئ العريس وابنته، أقصد عروسته.

ضعف عمرها، يشبه والدها بل جدها ربما، كنت أهزأ من التهنئة بيني وبيني، مجبرة على تقديمها، أخشى أن أهمس بشيء لأمي فتنهرني فيُفتَضح أمري، أو تضحك فيكون الأمر أعظم، الصمت يُتعبني، ابتسامة صفراء أوزعها.

بدأت أنظر إلى العروسين بالتناوب، وأقارن بينهما، تجاعيد وجهه، صفاء وجهها، شعره الأبيض، شعرها الأسود، تركيبة الأسنان في فمه، أسنانها المكتملة، حركته البطيئة، مشيتها الأشبه بالركض، بروز الأوردة في كفيه، كفاها التي تشبه الوسادة الوثيرة، ابتسامته، وجومها، هو أكثر ما أغاظني، اندفع الدم بسرعة إلى رأسي اندفاعًا أنساني أين أنا، الحضور، عمي، والداي وتحذيرهما.

هاهو لساني يُطلق رصاصة مدوية بصوت وصل إلى الجميع: كم مرة سيمارس معك الجنس في الأسبوع، بحسب اعتقادك؟

صمت الحضور وكأن على رؤوسهم الطير، وزعت نظرات بينهم تقول، أنا صاحبة الرصاصة.

وقفت أمي وسحبتني من يدي وخرجت دون كلمة أو نظرة، لم تنظر حتى لأبي.

لم تنطق بكلمة واحدة طوال الطريق إلى منزل صديقتها، التي قصت عليها ما حدث، فانفجرتا ضاحكتين، كنت ممنوعة من مشاركتهما بالطبع.

عدت إلى المنزل بعد ثلاثة أيام، من اللجوء الإنساني عند الصديقة، بعد تعهدٍ من أبي بضبط النفس، والتزامٍ بمراعاة حقوق الإنسان في التعامل معي، وتعهدٍ من أمي بعدم تركي وحدي معه في المنزل شهرًا كاملًا، وبأن ألتزم الصمت قدر الإمكان.

أما عمي، الذي كان أبي دائم التأكيد له، بأنه يتخذ كل وسائل إعادة التهذيب والإصلاح معي، فلا أعتقد أني سأراه مرة أخرى، ما دام أحدنا حيًا.

3 - ثلاثة

جارتي: شقيقي يبحث عن عروس.

أنا: هو متزوج وله من الأبناء ثمانية؟

- أعلم أنك معترضة على مبدأ الزوجة الثانية.

- ليس هذا بيت القصيد، لن أناقشك في أي شيء يتعلق بهذه النقطة، اعتراضي على قدرته المادية، هو مجرد موظف، بالكاد يكفي راتبه لدفع إيجار المنزل ولنفقة أولاده.

- يرغب في ذلك منذ زمن، لا مناص.

نحن جارتان منذ سنوات، مما أدى إلى نشوء صداقة، تجعلنا نلتقي أكثر من مرة أسبوعيًا؛ نثرثر في شؤوننا العائلية وفي شؤون غيرنا، هذا لم يكن مبررًا لها لتعرض علي الزواج من شقيقها.

شخصيته ليست من النوع المحبب لي، عنيد عصبي، متسلط الرأي، مع رشة من الحمق الذي كانت كثيرًا ما تقذف في وجهي الشكوى منه.

أيام طوت أيامًا، دون أخبار عن العثور على الهدف؛ بسبب ظروف المُستهدِف، جعل شروطه أقل، تنازل فصرف نظره عن الزواج من عذراء.

بعد عام، جارتي تدعوني لحضور حفل زفافه، تأخذني الأفكار إلى أسباب متعددة مؤلمة، تجعل امرأة توافق على هكذا شخص.

خطرت أسباب كثيرة في رأسي، لم يقنعني مجرد أنها مطلقة ولديها طفل، لا شك أنها أصبحت ثقيلة على أهلها، من حولها ضغطوا عليها أيضًا، تريد طفلًا آخر، ليست جميلة.

خواطر كثيرة، لم يقنعني أي منها، وأخيرًا خطر لي احتياجها للجنس، رأيت السبب مقنعًا أكثر من كل ما سبق، طلاق ثانٍ هو ما خشيت عليها منه.

لم أكن أريد الذهاب إلى الحفل، ولكن جارتي أصرت على ذهابي مثل الأطفال: استمتعي بالحفل وكفى، صدقيني أنا لا أرغب في الذهاب أيضًا، ولكن.....

ارتديت أول شيء وقعت عيني عليه في خزانة ملابسي، لم آبه بالتأنّق ولا بالزينة.

مكان الحفل صغير، المدعوات قليلات، أفتش في ذهني عن سبب سعادتهن، لم هذه الضحكات، ما الذي يدور في هذه الأدمغة؟ هناك بعض من أطفاله، ما الذي يحدث؟

رغبة من قِبَل الأولى في بناء علاقة جيدة مع الثانية، أم ضغط من الزوج، أم براءة أطفال لا يدركون شيئًا؟ ليتهم لا يفعلون يومًا.

ابتسامة مغتصبة، وسلام بارد، للعروس، رغبة في سؤالها مباشرة وبصوت يسمعه الجميع، لماذا؟

رغبت في فعل هذا؛ ليس لأن جمالها وعمرها يعطيانها فرصة للحصول على زوج أفضل، بل بسبب حزن في عينين لم تستطع شفتين مبتسمتين إخفاءه، الأولى دائمًا أكثر صدقًا، مساحتها الصغيرة، تجعل المشاعر فيها عالية التركيز، كل ما تحتاجه هو جهاز استقبال جيد، أو جهاز لا يرغب بالكذب على نفسه.

حاولت الابتسام والاندماج، حاولت أن أجعل عيناي تكذبان، ولكن قوتهما أظهرت ما في داخلي، رغبت بنسيان أمرٍ لا فائدة من شغله حيزًا، ولكن كيف الطريق وجارتي لا تكف عن الحديث عن حياة الشقيق؟

العروس لا تستطيع الحمل، لديها مشكلة نتجت عن ولادة طفلها، تحتاج لعملية جراحية، التكلفة ليست كبيرة، ولكن الشقيق لا يملكها، المهر عبارة عن دين من إخوته وأخواته.

المضحك المبكي حدث بعد ستة أشهر، قام الشقيق بنقل سكن الثانية إلى منزل الأولى؛ إذ لا يملك مالًا يدفع به إيجار الشقة الثانية.

فمي بقي مفتوحًا لما يقارب الربع ساعة من دهشتي من القرار، وربع ساعة أخرى من موافقة العروس على الأمر.

– لم تكوني صادقة بوصف أخيك، لا بد أنه يمتلك من الصفات، ما لا يُقاوم حتى يتم له ما أراد.

– بل هو الخوف من طلاقٍ ثانٍ.

بعد عدة أشهر، عادت مفاجآت الشقيق لتتوالى، زواج ثالث.

– أخي وقبل زواجه الأول، يحلم بأن يجمع بين أربع زوجات.

– لن أتناول الحلوى، وسأغادر.

– ما ذنبي أنا؟ اجلسي لنتحدث.

– هذا فيلم هندي.

– وترينه على أرض الواقع، عليك شكر أخي إذن.

– سأغادر، أحتاج إلى دش بارد.

يا إلهي، كم تمنيت التعرف على شقيقها، لأرى السحر والجاذبية التي تجعل النساء، تركض إليه.

– أين ستسكن الثالثة؟

– مع الأولى والثانية.

نوبة من الضحك استمرت نصف ساعة، خاصة وقد خطر ببالي منظر فتانا، خروف بين أحلى نعجتين، كما قال أحدهم، ولكنهن أصبحن ثلاثة.

خروف بين ثلاث ذئبات، أصبح حال الشقيق، لم تكن الحياة صافية ووردية كما توقّع؛ رقم ثلاثة، كان لها مخططات في الخفاء، فبعد أقل من شهر، تركت الثانية المنزل؛ الثالثة اشتبكت معها وضربتها.

عادت الثانية بعد تدخُّل الوالدين من الطرفين، وتعهدات من الزوج بالحفاظ على الأمن في المنزل، والتصدي لأي عدوان قد يقع مستقبلًا، والضرب بيد من حديد على من تخلّ بالأمن.

الثانية طيبة القلب، والأولى كذلك إلى حدٍ ما، شكلتا حزبًا واحدًا ضد الثالثة الغاشمة، وجود الأبناء أدى إلى أن يكون هذا الحزب هو الأثقل، ساد سلام متوتر، أرض المنزل.

أنجبت الثالثة طفلًا، تحسُّن طفيف في وضع الشقيق المادي، جعله بدل أن يُجْري عملية لزوجته الثانية، يبحث عن زوجة رابعة، وستسكن في نفس المكان.

اتصال من أم جارتي، خطبتني فيه لابنها؛ شخصيتي القوية ستعزز الجانب الطيب في الميدان، أستطيع جعل الصوت الأعلى للعدل، كما أن ابنها معجب بشخصيتي على حد كبير؛ نتيجة كلام أخته عني.

أمي تضغط علي لأوافق؛ لقد اقتربت من الأربعين من العمر، لا ترى بأسًا في أربع زوجات في منزل من ثلاث غرف، لم أكن أتصور الوضع قبل ذلك، ولكن من المؤكد أن الزوجات الأربع سينمن سويًا، ومن لها الدور، تدخل إلى غرفة العجائب.

4 - خالي الدسم

ترتيب البضائع على الرفوف، هو عملي في هذا المتجر الضخم، أمر ليس سهلًا؛ هناك الأصناف، وأمور داخل الصنف الواحد، تاريخ الصلاحية، بلد التصنيع، الوزن، الخاصية، هذه معلبة في زجاج، وتلك في معدن، وتلك في ورق مقوى، وهذا في أكياس ورقية، وذاك في أكياس بلاستيكية، كل هذه الأمور يجب مراعاتها أثناء الترتيب، بالإضافة إلى ما يجب أن يكون مرتفعًا، وما يجب أن يكون في متناول الأطفال.

شرخ في مشط قدمي اليمنى تسببت فيه علبة من الصلصة سقطت من علٍ، خلل في التوازن فوق حبّات حمص تناثرت إثر تمزق كيسها، انزلاق في علبة (مايونيز) أسقطها طفل شقي وهو يركض بين الرفوف.

كنت مصممة على الاستمرار في المكان، أصبحت مع الوقت أكثر حرصًا، قلّت الحوادث، زادت سرعتي، بدأت أستمتع بالعمل، أحفظ الزبائن، أعرف طلباتهم، أبتعد عن أطفالهم، كما قويت إرادتي أمام ما لذَّ وطاب، لم أكن لأعود للسِمنة مرة أخرى.

استقالة زميلي من قسم أطعمة الحمية، وضعتني مكانه، قواعد الترتيب أضيف إليها كلمات أخرى: كامل الدسم، قليل الدسم، خالي

الدسم، كلمات أعرفها جيدًا، قلة من النساء لا تعرفها، خضت عدة أنظمة غذائية لأخسر من وزني ولأحافظ على ما وصلت إليه.

أعرف كل الطعوم، أزعجني القسم، وأعادني إلى ذكريات لا أريدها، أفضّل عدم أكل الشيء، على أكله خالي الدسم، قليل الدسم ليس أفضل حالًا بكثير.

نزول وزن أشخاص، بكاء آخرين، تململ من أنواع من الأطعمة، هو ما أسمعه في هذا القسم، سعادة لمن استطاع الوصول إلى الوزن المطلوب، ألم وشتائم ممن أعلن استسلامه وهجرانه لطعام الحمية ولمتجرنا.

مجيئه جعلني أغيّر رأيي في الذهاب إلى المدير ليعيدني إلى عملي القديم، كان لطيفًا، ابتسامة هادئة.

طلب نوعًا من الجبن، أخذت وقتًا في التعرّف إليه، من بين ما يزيد عن عشرين نوعًا، لم يتضايق، لم تفارقه الابتسامة، بل طلب مني الهدوء، وأخذ وقتي، قائلًا: لست على عجلة من أمري.

خدمته بمنتهى السعادة، فعلت في اليوم الثاني، تبادلنا حينها كلمات أكثر، لم يحضر في اليوم الثالث، لم ينهي الجبن الذي اشتراه بعد بالتأكيد.

لم تعد حالتي بعده كما كانت، أحضُرُ إلى العمل بسعادة وهمّة أكبر، جئت مبكرًا أيامًا عديدة؛ لأحفظ جميع أنواع الأطعمة، خاصة الجبن، أسبوع مضى وأنا أمنّي نفسي بحضوره.

أمام المرآة، اتهمت نفسي بالغباء؛ وعدت إلى عملي عاقدة العزم على عدم التفكير فيه، ولكني كدت انفجر ضحكًا من السعادة عندما شاهدته، ها هو يأتي إلي، يريد نفس الشيء، غادر شاكرًا: أنت ألطف بائعة تعاملت معها يومًا.

لا بد أن الجبن كان رائعًا هذه المرة، لدرجة أن أراه يقف أمامي في اليوم التالي.

أصبح يحضر بشكل شبه يومي، سعادتي لم تكن تخفى على أحد، الزملاء يتغامزون ثم يسألون، عائلتي، صديقاتي، أنا في حالة حب ولا شك، ولكن هل هو مثلي؟

اختَصَرَ مجلدات غزل وحب ورغبة وإعجاب في جملة: لقد أعطيتِ لحياتي طعمًا.

نتقابل كل يوم تقريبًا، نتحدث لساعات، حياتي أيضًا تغيّر طعمها، نكهة جديدة رائعة لا يعرفها إلا مُجرِّب، مع أنه لم يتحدث كثيرًا عن الارتباط، إلا أن خيالي بدأ التخطيط للزواج، وتخيُّلِ حياتي معه، اخترت المتاجر التي سأشتري منها كل ما أحتاج، بدأت باقتناء كتب الطبخ المتنوعة، أقضي وقتًا أكثر مع أمي في المطبخ أصل لأفضل طعم لكل طبق، وضعت قائمة للأماكن التي تصلح لإقامة حفل الزفاف، وشهر العسل أيضًا، لم يفتني شيء حتى أسامي الأطفال الذين سنرزق بهم، وكيفية تربيتهم.

مجنونة، هذا ما كنت أعتبر نفسي بعض الأحيان، ولكن، إذا كان الجنون بهذه الحلاوة، لم لا؟ ألم يقل لي أني أعطيت حياته طعمًا؟! ألا يكفي هذا؟! قال لي أيضًا، إن الحياة بلا حب، مثل أن تأكل وأنت مصاب بالزكام.

أربعة أشهر مرت على هذا الطعم، ورويدًا رويدًا، تنسحب النكهة من حياتي، مقابلاتنا تقل، مكالماتنا تصبح أقصر، حضوره إلى المتجر، ابتسامته، اهتمامه، تذكّره لتاريخ معين، كل شيء يتراجع.

مشاكل العمل هي الحجة الثابتة لديه، ثم بدأت القائمة تتنوع؛ مشكلة لدى أخته، زوج خالته تشاجر مع والده، صديقه ماتت جدته، أصبح عمله يقتضي سفره.

وجهي أصفر، لا أنام جيدًا، بدأت أهمل عملي، أشرد كثيرًا، أصرخ بزملائي، لا أعير الزبائن الاهتمام الكافي، وها هو تحذير من المدير أتلقّاه، لأول مرة منذ عملي هنا.

إجازة نصحتني بها صديقتي، قضيتها في حيرة وبكاء، ومراجعة لكل كلمة وفعل، كانت تكرر على مسامعي كلمات مثل: كان يلهو بك، رأى أنك تريدين الزواج، فجاراكِ حتى ملّ منك، وجد غيرك ولا شك، لستِ غبية، بل طبيعية، لا يستحق العناء، انسيه وعودي لحياتك.

لو كان الفعل بسهولة الكلام لتغير التاريخ، عدت إلى عملي ينقصني جزء، تنقصني مشاعر، فقدت بعض الكيلوات دون عناء هذه

المرة، الحزن هو أفضل طريقة لخسارة الوزن، هل سأخبر زبائن قسمي بهذه المعلومة؟

مراعاة زملائي لي، وموافقة المدير على عودتي إلى الرفوف، ساعدني على التعافي رويدًا رويدًا، كان أصعب شيء هو تقديم ابتسامة زائفة إلى العملاء، من الجيد أن البضائع لا تحتاج هي الأخرى للابتسامة.

(لقد جعلتِ لحياتي طعمًا) لم لا يدرك أصحاب وصفات الطعام المسمى صحيًا، أن الخلل والفشل وانهيار وتراجع أصحاب الحِمْيات، هو الطعم.

ضع طعمًا للسم وستجد من يشربه، ضعه للموت.

عند هذه النقطة تيقنت بكذبه تمامًا، لو أني صنعت طعمًا لحياته ما كان ليتركني أبدًا.

ابتسامتي عادت، وهأنذا، أعود إلى قسم الأجبان، ما كنت لأتركه بعد أن حفظت أسماءها.

5 - تقاعد

أبي عامل نظافة في هذا المكان المميز، مقرّب جدًا من الوزير، خادم أمين، وفِيْ، حافظ للأسرار، الوزير لا يبخل عليه، تحسن مستوى معيشتنا كثيرًا مع الوقت، منزلنا لا يخلو من الضيوف، مجاملات، هدايا، أبي يطلب من الوزير أن يعيّن هذا، أن ينقل ذاك، أن يساعد هذا في الحصول على قرض، أن يحصل ذاك على دورٍ متقدم في ذلك المستشفى، وهكذا.

لست متفوقًا في الدراسة، اصطحبني أبي معه في عمر السادسة عشر إلى العمل، أصحبت مساعده، اعتبرني الوزير مثل أبي، ومن بعده اعتبرني ابنه كذلك، عندما أخذ مكان أبيه.

أصبحت أكثر مهارة من والدي في تكوين العلاقات، خدومًا أكثر منه للوزير وللناس، اعتبرته شرفًا، إرثٌ علي حَمْله، المجاملات والاحترام الذين كنت أُعامل بهما من الجميع، متعة لم أكن أستطيع حرمان نفسي منها، كانا أكثر من إدمان.

بلغت خمسين عامًا، طلبت تقاعدًا مبكرًا لإصابة في ظهري، تم تعيين غيري، خادم أمين بدوره.

كان الوزير يستقبلني بكرم، عندما أذهب لزيارته كل فترة، ثم بدأ يعتذر عن رؤيتي، توقفت عن الذهاب.

جرس الباب صامت، أتأكد من أنه يعمل مرتين أو أكثر يوميًا، نفس الصمت أصاب هاتفي، ضيوفي المعتادون يتهربون مني، عندما أبادر بالسؤال عنهم.

يشبهني في وحدتي، عامل بسيط كان يعمل معي، فرق واحد بيننا، لم يكن مدمنًا.

6 - زوجة الطبيب

محل جزارة، هكذا أطلق على العيادة التي أعمل فيها، طبيب وممرضة، وأنا موظفة الاستقبال ومسؤولة عن الحسابات في آن معًا، نعمل عدة ساعات مساء كل يوم.

هنا مسموح ذبح الإناث، بل معظم القادمون يجرون أنثى خلفهم، العمر يتراوح بين العام والخمسة عشر عامًا، زاد عن هذا حالات نادرة.

ثلاثة أعوام مرت على عملي هنا، أصبحت مقتنعة فيها تمامًا، بأن الختان جريمة اخترعها جبناء، كيف لا ومعظم من تمارس ضدهم من الأطفال؟!

وأن بين رجلي الفتاة، المكان الوحيد للشرف، فمن الطبيعي إذن أن تسن الأسلحة، وأن يشن هجوم من الأبوين والعائلة، والمُسمى الطبيب، والمُسماة الممرضة، على طفلة لا حول لها ولا قوة، كل ذنبها، أنها ولدت في مجتمع متخلف عقليًا ونفسيًا وجنسيًا، غارق في القذارة حتى جبهته.

يبترون جزءًا، هو الأهم في المتعة الجنسية لدى الأنثى، شاء من شاء وأبى من أبى كذبًا وزورًا؛ من باب الانتصار لهذه البشاعة.

لا بأس عندهم، فحرمانها من هذه المتعة، هو الهدف الرئيسي من الختان، وفي بعض الحالات تكره الفتاة الجنس جرّاء ردة فعلها النفسية على هذا، وهو أمر مُرحَّب به جدًا لدى هؤلاء الوحوش، لقد زاد احتمال حفاظهم على ذاك الشرف المزعوم.

معظم من يتزوج من مختونة، يحرص على ختان ابنته، لماذا؟ حقدًا على من سيتزوجها، هو لا يريد له أن يتمتع من ابنته بم حُرِم هو منه من زوجته، ولكن ماذا عن الأم، التي تحرص على ذلك؟!

هي تحرص على أن تُحرِم ابنتها مما حُرمت هي منه، من باب الغيرة، نعم لا تريد أن تنعم ابنتها بتلك المتعة.

كما أن الأم تعلم أن برود ابنتها، وسيلة تسيطر بها على زوجها؛ إذ تواجه رغبة طبيعية وقوية من الزوج برغبة ضعيفة، منقوصة، هي في موقف أفضل إذن؛ تستطيع أن تذله بالتقليل من الجنس، بل وبالامتناع عنه أيضًا، أشك أحيانًا بأن من اخترع الختان، هن النساء؟!!

هذه الأفكار تدور في رأسي طوال اليوم، تسيطر علي أكثر عندما أبدأ العمل، أتفحّص وجه المجرمين المسميين مجازًا آباء وأمهات، الكلمات تعود لتطرق رأسي مع كل ذبيحة مذعورة أراها، كم تمنيت أن ألقي في وجه كل حالة كلماتي السابقة، ربما تكف عن التردد في ذهني، إنها تختنق فيه وتخنقني.

كم تخيلت ضربهم، والبصق في وجوههم، وكم تخيلت نفسي أغلق العيادة على الطبيب، وأحرمه إلى الأبد من ذكورته، أما الممرضة فلن أفعل بها شيئًا، هي محرومة ولا شك مسبقًا، محرومة مثلي، لم تسأل واحدة منّا الأخرى عن الأمر، ولكن أرى هذا في ابتسامتها المقززة عندما تأتي أية حالة، ترى هل اكتشفت أمري؟ وما الذي أخبرها؟

أعتقد بقوة أن سبب معظم الحروب في العالم، هن نساء مختونات، فلا يجد الرجال مجالًا لتفريغ طاقتهم، سوى بإشعال حروب يحرقون فيها الأخضر واليابس.

أية طفلة أراها في الشارع لا أنظر إلا لما بين رجليها، هل تم القطع، أم أنها تنتظر توفر المال مع والديها؟ لن أسامح والدي أبدًا.

أية امرأة أراها أفكر أحيانًا بسؤالها، هل ينقصك جزء؟ الأزواج أود سؤالهم عن وضع نسائهم في غرفة النوم.

أحلامي بدأت تصبح على وتيرة واحدة، خيارات قليلة أمامي أحلم بها، مثل قصص أمي الخمسة التي كانت لا تحفظ سواها، وتعيدها بلا ملل كل أسبوع.

برك من الدماء أسير فيها، أو يداي ملوثتان به، مرات آكل الأجزاء المقطوعة نيئة، مرات أقوم بطهوها، مرات أرى المال ملوثًا بالدماء، مرات أراني أقتل من في العيادة بما فيهم أنا، أو أشعل النار فيهم.

لم يكن أمامي للتخفيف من حالتي سوى أن أكون مثل (روبوت)؛ حتى أتمكّن من إنفاق قرش من راتبي، أنا أشتري ما أريد بالدم وليس بالمال، بمعاناة، بألم، بحرمان أعرف مقداره جيدًا.

تلك الجالسة هناك، أكثر ما يغيظني ويحزنني في ذات الوقت، جميلة، أنيقة، ملابسها تصل إلى الركبتين، ساقاها جميلتان، أعرف جيدًا ما المفقود من بينهما.

ماذا تفعل زوجة الطبيب هنا كل مساء؟

تعمل موظفة استقبال، ومسؤولة عن الحسابات في العيادة.

7 - مفقود

سالم بجدية وهدوء: يجب أن يأخذ عمي حقه.

الأم بانفعال: أي حق له؟! لقد اشترى والدكم نصف الشركة منه، منذ ما يزيد عن خمسة عشر عامًا، كيف يقول أن والدك قد مزق العقد؟ وكيف له شراء النصف مرة أخرى؟! من أين أتى بالمال الكافي؟

- ليس من حقي أن أسأله عن مصدر أمواله.

- بل من حقك.

أحمد: اهدئي يا أمي.

- كيف لي أن أفعل؟!

ناصر: ربما هو في أوراق والدي هنا في المنزل.

ارتسمت الحيرة على وجه الأم، الأمر مفاجئ جدا لها، كانت كمن انقطع عنه الهواء للحظات ثم عاد إليه: هنا وأنا لا أدري؟!

فهد بحيرة: لا مفر من ذلك، وإلا صدق عمي، وأخذ نصف الشركة.

الأم بإصرار: بل هو كاذب.

سالم: لن نعرف أبدًا، ولن نستطيع فعل شيء في غياب العقد، عقد الشراكة القديمة معه.

ناصر بإصرار: علينا التفتيش هنا، خاصة أنت يا أمي، ألا توجد أوراق خاصة بأبي هنا؟

الأم بحيرة مجددًا: لا أذكر أن والدك أحضر أوراق عمل هامة هنا.

سالم: لطالما كانت أسرار أبي معك، وغالبًا العقد هنا.

الحيرة ترتسم مجددًا على وجه الأم، التي تلوذ بالصمت، فيقول ناصر برجاء: أرجوك يا أمي، فتّشي جيدًا، إنه مبلغ ضخم.

الأم: سأفعل بالتأكيد، ولكن السؤال، ماذا إذا لم نجده؟

نظر الإخوة إلى بعضهم البعض، ثم نظروا لسالم الذي قال: له حقه.

نظر الإخوة إليه بعدم رضا، فقال سالم: هل ترضون أن تأكلوا مالًا حرامًا؟! أنا لن أفعل أبدًا.

الحيرة والصدمة والاستغراب والمفاجأة، مشاعر تداخلت وسيطرت على الجميع، جعلتهم واجمين، أفكار متسارعة في رؤوسهم، إنه ميراثهم حقهم، لا يذكرون من أيام شراكة عمهم مع والدهم الكثير، هي مجرد كلمات، بل لا يذكرون متى زاروا عمهم أو زارهم آخر مرة، السنوات تمر أسرع مما نتخيل، هم في بعض الأحيان ينسون أن والدهم قد مات.

بعد لحظات من روان الصمت عليهم، نظروا لبعضهم البعض، ثم هزوا رؤوسهم نفيًا لحدوث هذا، فقالت الأم التي كانت تنتظر ردة فعلهم: لن يقبل أحد فينا مالًا ليس من حقه، ولكن والدكم لم يكن

ليفعل هذا دون أن يخبرني، لم أكن بعيدة عنه أبدًا، في قرارات بسيطة، فكيف بقرار بهذا الحجم؟!

سالم: ربما لم يشأ إغضابك.

ضايقت هذه الجملة الأم؛ فقد بدت أمام أبنائها وكأنها كانت سعيدة بانفصال الأخوين، فوقفت، وقالت لسالم: ما الذي يغضبني من شراكته مع أخيه!! أنتم تعرفون جميعًا، أنه طوال هذه الفترة، كان والدكم يعطي عمكم المال، وهذا ما ساعده على إقامة عدة أعمال فاشلة؟!

وقف سالم بدوره: ربما لم تكن كذلك، واستطاع جمع المال الذي أعاده إلى الشركة.

الأم: لماذا إذن كان ينتقل من عمل إلى آخر؟!

ناصر: وربما المال الذي كان يعطيه له أبي، هو نصيبه من الأرباح.

سالم معتقدًا أن أخاه على حق: أعتقد هذا أيضًا، ربما يبرر هذا حضوره القليل جدًا إلى الشركة.

مجددًا صمت الأم يجبر الجميع على الصمت، فقال سالم: حيرتي وانزعاجي لا تقل عنكم جميعًا، ولكن هل باليد حيلة؟

قال أحمد يرجو والدته: أمي، أرجوك اهدئي، وابحثي عن العقد، أنا متأكد أنه في غرفتكما، عليك التفتيش بهدوء فقط.

فهد: ألم يكن يستطيع الانتظار أكثر؟!

صعدت الأم إلى غرفتها، ورأسها مزدحم بالأفكار، وقلبها متألم، فما زال جرحها من وفاة زوجها ينزف، شهر مضى عليها كأنه عام، وربما كأنه ساعات، أوقات الحزن طويلة وقصيرة في نفس الوقت، غياب زوجها العزيز أمر صعب جدًا.

الدموع الحارة التي حبستها أمام أبنائها غمرت وجهها بسرعة، قالت لنفسها: لو أن لي ابنة، لكانت شاركتني دموعي، لدى الرجال مشكلة مع البكاء، كم كنت أتمنى لو أنتحب كل يوم أنا وأبنائي على والدهم، ولكن....

بكت الأم كثيرًا، لا تعلم كم من الوقت فعلت، الألم يُبكيك مهما حاولت المقاومة، دموعك التي تحبسها تتساقط على جدران قلبك نيرانًا حارقة، فلتحرق صفحات الخد أفضل إذن، ولماذا تمنع أم سالم دموعها من الأساس؟! من مثل زوجها يستحق البكاء؟!

أخذت الأم تغسل وجهها وهي تلوم نفسها قائلة: هل كنت سيئة مع عائلة عم أبنائي إلى هذه الدرجة؟! من الواضح أني كنت كذلك بالفعل، والدليل زياراتنا النادرة المتبادلة، لابد أن انسحابي إلى الطبقة التي أصبحت منها، أنساني الطبقة التي كنت أنتمي إليها.

بعد أن أخرجت أم سالم كل ما في قلبها من ضيق، ومن تساؤلات، بدأت تفتش عن العقد، لم تترك ركنًا، إلا فتشت فيه، حتى الكتب التي لم يمسكها زوجها في يوم من الأيام، فتشت فيها، فتشت بين الملابس، في كل حقائب السفر، في جيوبها الصغيرة، فتشت حتى تحت السرير،

وبدأت تجمع كل الأوراق، حتى المحتوية على خربشات، بدأت تجمعها في ملف واحد، ولكنها لم تجد شيئا، فأعادت التفتيش مرة أخرى مستعينة بأبنائها، الذين فعلوا مثل أمهم في غرفهم.

حملة تفتيش شنها الخمسة بكل قوة واهتمام وتركيز ودقة، لم يتركوا شبرًا في المنزل إلا وبحثوا فيه، فتشوا في أماكن من المستحيل أن تكون فيها ورقة فارغة حتى فما بالك بعقد بهذه الأهمية، فما بالك بعقد بهذه الأهمية، فتشوا حتى في المزهريات، في المطبخ، في الأواني، تحت الأثاث، كانوا يضحكون من أنفسهم في بعض الأحيان، ولكن وسواس التفتيش تملّك منهم تمامًا، فالأمر جَلَل.

يومان كاملان من التفتيش الدقيق، لم يسفرا إلا عن بعض الأوراق الخاصة بالعمل وبغيره، خلت كلها من أية إشارة لما يبحثون عنه.

ذات مساء، عاد سالم من الشركة، وعندما وجد والدته نائمة، جمع إخوته

في غرفته وفتح معهم نقاشًا جادًا عن وضع الشركة، التي تشكّل أكثر من تسعين في المائة من حجم ميراثهم، كان الحوار عن تولّي أمر إدارتها، وعن العقد المفقود.

قال فهد: أنا في كلية الطب، لا أفهم شيئًا من عمل أبي، آخر مرة زرته فيها هناك كانت منذ عام، ألوم نفسي على هذا كثيرا الآن، ولكن ما الجدوى؟ أندم على أوقات كنت أستطيع أن أقضيها معه ولكن....

سكت فهد متألمًا، فقال له ناصر مواسيًا بعض الشيء: كلنا مقصِّرون في هذا الجانب، أرغب أحيانًا في ملازمة قبره بضعة أيام، عندما جاءني خبر وفاته، كرهت الدكتوراة التي هي حلم حياتي، وحتى اليوم أفكر في الانسحاب من البعثة.

سالم مخاطبًا ناصر: وهل سيعيده هذا؟

ناصر: لن يفعل، ولكني لا أحتمل فكرة حدوث شيء لأمي بدورها، وأنا بعيد عنها. سالم: من الخطأ أخذ أي قرار هام في هذا الظرف الذي نعيشه، لن نسمح لك بفعل ذلك، لم يبق أمامك سوى عام.

ابتسم أحمد ابتسامة خجولة وقال مداعبًا إخوته: لا تخبروني أنكم ستتركون الشركة لي، وأنا ما زلت في الثانوية.

سالم مخاطبًا أحمد: لا بأس من أن تبدأ في الحضور إلى الشركة من اليوم فصاعدًا، ربما تقرر دراسة إدارة الأعمال، وتمسك زمام الأمور يومًا ما، مسؤولية الشركة ثقيلة، لست بعبقرية أبي لأدير ما يقارب المائة مليون، أريد يد عَون معي.

أحمد: لا مانع لدي، سأبدأ فور انتهاء هذا العام الدراسي.

سالم: أريد معرفة رأيكم في مسألة العقد.

ناصر: أميل كثيرًا لرأي أمي، لم يكن أبي ليخفي عليها أمرًا بهذه الجدية، وأمي تتمتع بذاكرة قوية.

فهد: وحتى لو كانت ضعيفة، أنى لها نسيان أمر كهذا؟!

سالم: أنتم تعلمون جيدًا، أن أمي حريصة جدًا على مصلحتنا، قد ينسى الإنسان ما يرفضه، أو ما يتعارض مع مصلحته، فما بالك بما يتعارض مع مصلحة من هم أغلى عليه من نفسه؟

ناصر: لن نقبل أن نأخذ مالًا ليس من حقنا، ولكن أيضًا لن نقبل أن نُظلم من قبل أحد.

سالم: أؤيد رأي ناصر، هل لأحد منكما رأي آخر؟

هز فهد وأحمد رأسيهما نافيين الاختلاف مع سالم وناصر، فقال سالم: أنا متأكد أني أمي ستوافقنا الرأي، فهي أفضلنا خُلُقًا، ودعونا نفتش مجددًا عن هذا العقد.

فهد بضيق: لقد فعلنا، وتعبنا.

سالم: ما المانع من التكرار؟! إن الثروة تستحق، هذا تعب أبي سنين طويلة، إذا لم نجده سنخسر الكثير، عندها علينا أن نسلم نصف الشركة لعمي.

أحمد: وإذا لم نفعل؟

- سيتقدم بشكوى ضدنا، وغالبًا سيُحكم له، ما زال يملك عقد ملكية الشركة مع أبي، إنه يتصل بي كل يوم تقريبًا.

ناصر: هل هدد بشيء؟

سالم: لم يفعل بعد، وكلامه يخلو من أية عصبية، ولكني لن أنتظر حتى يفعل.

في مكتب والد سالم في الشركة، جلس سالم مع عمه، في وقت متأخر من الليل، وقد أخذ سالم مكان والده، وجلس عمه إلى يمينه يقلّب في عدة ملفات خاصة بالموظفين، قد وضعت على مكتب والد سالم، وبعد عدة دقائق ضحك العم، فسأله سالم مستغربًا: قل قرأت دعابة في أحد الملفات؟

العم: نعم.

سالم مستغربا: ماذا تقصد؟

- هل قرأت أسباب فصل هؤلاء الموظفين، والتي كتبها والدك داخل ملفاتهم؟

- لم أفعل، ولا أفعل عادة، هذا تخصص والدي فقط.

أخذ العم يقرأ الملاحظات بسرعة، ويضع كل ملف ينتهي منه أمام سالم: هذا الموظف تقصير، وهذا عدم التزام بالمواعيد، وهذا تعامل سيء مع العملاء.

- باستغراب: أهذا ما أضحكك؟!.

أمسك العم ملفًا وقال: هذا الملف سيشد انتباهك، هو تطبيق للمثل القائل: شر البلية ما يضحك، مكتوب هنا، أن سبب فصل هذا الموظف، مثاليته، وأمانته الزائدة، ألا تجد الأمر مضحكا؟!

خطف سالم الملف من يد عمه، ونظر إلى صفحة معلومات صاحب الملف، ثم نهض وقال باهتمام شديد: لقد عرفت مكان العقد.

العم: سأعطيك مليون ريال.

هشام مستغربًا: مقابل ماذا يا سيدي؟!

يكتم غيظه: أرجوك لا تتظاهر بالغباء، أنت تعرف جيدًا ما أقصده.

– صدقني لم أفهم شيئًا، عن أي عقد تتحدث؟

– عقدٌ وكفى، أحضره لي.

يقف هشام، ويشير للعم بالانصراف: اخرج من منزلي لو سمحت.

– طردك لي يؤكد أنك تعرف قصدي.

يكتفي هشام بالصمت، وبإشاحة وجهه عن العم الذي، يتمالك أعصابه، ويكتم غضبه، الذي لو أطلقه لكان كافيًا لتهشيم كل عظمة في جسد هشام، ويقول له بهدوء ولطف، وهو مازال لديه أمل في أن يحصل على مبتغاه: مليونان، ولن أزيد عليهما، سيمنحانك منزلًا أفضل من هذا المنزل الفقير، وتستطيع أن تتزوج، وأن تنشئ لنفسك عملًا جيدًا.

– لا أعرف عما تتحدث.

– يبتسم بخبث ويقول: عقد بيعي نصيبي في شركة أخي له منذ سنوات طويلة، هل عرفت عن ماذا أتحدث؟

هشام ما يزال محتفظًا بهدوئه الذي استقبل به كل حديث الضيف الثقيل: لقد طردني أخوك؛ لأني رفضت أساليبه في بعض صفقاته، هل تعتقد أنه كان ليترك معي عقدًا بهذه الأهمية؟!

– لم يجد أأمن منك عليه.

– ماذا عن زوجته؟

– سأؤذيك.

– إذا لم تغادر فورًا، سأستدعي لك رجال الشرطة.

في منزل العم، يجلس سالم هادئًا بينما العم يستشيط غضبًا، ويذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا، العم: لقد كنت محقًا في مكان العقد.

سالم: نعم، لقد أحضره لأمي، التي كانت سعادتها في أن ثقتها بأن أبي لم يكن ليُخفي عليها أمرا كهذا، أكثر من سعادتها من احتفاظنا بثروتنا كاملة.

– ماذا عني؟

– ما المطلوب؟

– كنت تعرف جيدًا أن هشام لن يسلمني العقد.

– ينفعل قليلًا: من أين لي أن أعرف؟!

– لِمَ لم تحاول بعد فشلي معه؟

يغضب سالم: هل جننت؟ ! تريدني أن أفضح نفسي أمامه؟

– ما الوضع الآن؟

– يهدأ سالم: عادت الأمور إلى نصابها، لم يعد بيدي شيء.

- هل أخرج من كل هذه الثروة صفر اليدين؟!

- لم يكن لك حق فيها منذ البداية، أم نسيت؟

- لم أنس، ولكن عليك إعطائي ما أريد.

- ما الذي يجبرني؟

- سأخبر أمك وإخوتك بحقيقة ما حدث، أن والدك فاجأنا في الشركة في ليلة موته، وسمعك تتآمر معي ضده على سرقة العقد، مقابل أن أحصل على نصف الشركة بعد موته، بعد أن أثبتت الفحوصات الطبية صعوبة نجاته إذا ما أجرى العملية الجراحية، التي كان مُصرًّا عليها، على أن تحصل أنت على ثلاثة أرباع نصيبي، وأحصل أنا على الربع.

ينظر سالم نظرة غاضبة لعمه ثم يكمل القصة: وعندما سمعنا، طردنا من الشركة، وهدّد وتوعّد، ومن الواضح أنه أخذ العقد وذهب به إلى هشام، وأثناء كل هذا، أُصيب بالذبحة الصدرية التي أودت بحياته، لقد فضّل نجاة العقد على نجاته.

- أحسنت.

يبتسم سالم بخبث: وهل تعتقد أن أحدًا من عائلتي سيصدقك، وقد ادعيت ما ادعيت؟!

- يصمت للحظات ثم يقول: يا لك من شيطان.

يضحك سالم بقوة، ثم يقول: من شابه عمه فما ظلم.

ينظر العم إلى سالم نظرات نارية عاجزة، فتجابهها نظرات ساخرة متحدية من ابن أخيه، الذي يعرف، لأول مرة، أن للغضب دموعًا.

سالم: سأعطيك مليونًا، ولا أريد رؤيتك أو سماع صوتك بعد الآن، وهذان أمران ينطبقان على عائلتك أيضًا.

– مليون فقط؟!

– لنجعلها نصفًا إذن.

يقول العم بلهفة: قبلت، قبلت.

– هي في هذا الكيس.

يتحرك العم ناحية الكيس الذي كان سالم قد دخل به عندما وصل إلى منزله، ويتفقد المال، وعندما تأكد منه، قال، وقد هدأ هدوء اليأس، وخيبة الأمل، والعجز: لا بد أنك ستستولي على الشركة في أقل من عام بهذه العقلية.

– لن أفعل، على الأقل حاليًا، سأفعل ما يحلو لي، ما كان أبي طوال هذه السنوات يمنعني منه، سأرى العالم كله، وأعيش كما أريد، وبناء عليه لن أديرها أيضًا، لمدة لا أعلمها.

– مستهزئًا: لابد أن أحمد هو من سيفعل إذن.

يضحك سالم ثم يقول: لن تصدّق من سيكون المدير.

8 - أمير

لدي كل المواصفات التي تؤهلني لحمل لقب أميرة، تلك التي نقرأ عنها ونشاهدها في القصص منذ الطفولة، الكمال في كل شيء.

أنا من الطبقة المتوسطة، أحب الحياة، مقتنعة بأن جمالي كفيل بأن يجلب لي من أريد، العيون تتبعني أينما أكون، الغيرة تشعل قلوب النساء أينما حللت، أما الرجال فحدّث ولا حرج.

لن أتزوج إلا من أمير حقيقي، أريد حياتهم؛ القصور، السيارات الفارهة، اليخوت، الطائرات، السفر حول العالم بإشارة إصبع، الخدم، المجوهرات، التسوق من أفخم الماركات العالمية، المال دون حساب، حضور ما أرغب ليس بمجرد النطق به، بل بمجرد تخيله، نظرات من حولي من الناس، والتي سيملؤها الإعجاب والخضوع.

وجدتُه، ثروته تصل إلى رقم بتسعة أصفار، لديّ فرصة معه؛ فالمرأة هي من تخطبه تقريبًا، تذهب إليه من ترغب بالزواج منه، فتخلع ملابسها كاملة أمامه، إن أعجبته تم الأمر.

هو كريم يعطي من يتزوجها من المال ما يغنيها ما بقي لها من عمر، سيمكث معها لأشهر، نادرة هي من أكملت معه عامًا.

كانت طريقته تشبه كأس العالم، موسم بعد آخر، متقدمات فائزات، ثم تصفيات، ثم فائزة واحدة.

بحثت في الأمر جيدًا، حتى عثرت على امرأة تستطيع أن توصلني إلى من تتولى عملية قبول أوراق اعتمادي للدخول في هذه البطولة، هو يظهر بعد هذا مباشرة، في المباريات التمهيدية.

بدأت الاهتمام بكل منطقة في جسمي، بكل (مليمتر) فيه، بكل تصرفاتي، بكل همسة ولمسة وكلمة ونظرة وإيماءة، بطريقة كلامي، مشيتي، وحتى بطريقة تفكيري، كان عليّ الدخول إلى المونديال وأنا على أتم استعداد، لن أترك شيئًا للصدفة.

كما بدأت أثقّف نفسي -بأكثر من وسيلة- فيما يحبه الرجال في أجسام النساء وشخصياتهن، قرأت في عالم الجواري، والمومسات، في كل ما يخدم هدفي، أريد مالًا لا أستطيع عده.

بمجرد أن أصبح مطلقته سيتهافت الرجال عليّ، لقب مشرِّف، وجمال رائع، ومال وفير، آلاف الرجال يرغبون في الشيء الواحد منها، فكيف وقد اجتمعت الثلاثة.

بدأت أيضًا التفكير فيما سأفعله بالمال، سأؤسس عملًا يغنيني عن الجميع، وربما أستطيع به أن ألعب مع الرجال نفس الدور، يعرضون أنفسهم أمامي وأنا أختار.

أخبرت صديقاتي بالأمر، اعترضت واحدة، تحفَّظت أخرى، وافقتني ثالثة، كانت ستفعل مثلي لو كانت تتمتع بما أتمتع به، كلهن أبدين الموافقة على مساعدتي.

وقفت أمامهن كما ولدتني أمي أكثر من مرة؛ لكسر حاجز الخجل، ولعمل مقارنة بين قبل وبعد، لكل مرحلة أتخطاها؛ رياضة متنوعة، تنظيف بشرتي، تدليل شفتي، تدليك كامل جسمي، يجب أن يختفي أي عيب، اهتمام بالغ بصدري وبمؤخرتي، تكبير وشد، عناية كاملة عند أفضل الأخصائيين، هو لا يحب عمليات التجميل.

المستحضرات الغالية حضرت، الطعام الذي يخدم كل ما سبق أتناوله بانتظام، أتناول مشروبات عطرية طوال اليوم، يجب أن تكون رائحة فمي وإفرازاتي جميلة، معطرة لو استطعت.

دقت ساعة الصفر، اتصلتُ بها، أخبرتها أني مستعدة، ذهبت صديقاتي معي، لم تُضِع المشرفة وقتًا، تأملتهن مليًا، وعرضت على إحداهن التعري، ولكنها رفضت، أخبرتْها أنها متزوجة مع أنها لم تكن حتى مخطوبة.

لم يكن الأمر بالسهولة التي توقّعت، بشرتي اقشعرت عندما فحصت جسمي بيديها، ضغطت هنا وهناك، تأملتها، أعتقد أنها فعلت ما جئت أفعله ذات يوم.

هل سيقوم هو بنفس الأمر؟ لم أسأل، الخجل أصابني فجأة، صديقاتي تعالت ضحكاتهن وتصفيقهن؛ لقد تجاوزت المرحلة

الأولى، النهائي يأتي مباشرة، بعد أسبوع سأتعرى أمامه، شيء بداخلي غير راضٍ عما أفعل، ولكني لن أتراجع، ليكن ما يكن.

جاء اليوم المرتقب، القلق أخذ مني كل مأخذ، ممنوع حضور أحد معي، فعلت ما تفعله العروس وأكثر.

سيارة فخمة اصطحبتني إلى قصره، ثم قادتني خادمة إلى غرفة تراصت بجوارها غرف كثيرة، خلف كل باب فتاة ولا شك، إحساسي أخبرني بذلك، مباريات لا يرى فيها المتنافسون بعضهم.

سيصل الأمير بعد ساعة، في المكان ما لذ وطاب من الطعام والشراب، قلقة لأول مرة مما سيطلبه، هل ستكون المشرفة معه؟

دخلتْ قبله رحبتْ بي، دخل هو، أقل وسامة من صورته في الصحف، ولكن المهم ألا يكون أقل ثراء، رحب بي بكلمة واحدة، ابتسامة باهتة، جلس على كرسي، أشارت لي المشرفة بالتنفيذ، رغبة في الانصراف، سيطرتُ عليها جيدًا، ولكن لم أفعل مع رعشة في يدي، أسفرت عن خلع ملابسي بصعوبة.

هأنذا أقف أمامه مجردة من كل شيء، إشارة منها بالدوران، وقفتُ وجلستُ ونمتُ وانحنيتُ بأكثر من وضع.

غادر المكان، أشارت لي بارتداء ملابسي، طلبت مني الانتظار، بعد قليل، عادت تحمل طقمًا من الذهب، أعطته لي، وقالت: أتمنى لك حياة جميلة خارج هذا القصر.

9 - صوت

غادرت عائلتي لحضور مناسبة، وبقيت مع أختي في المنزل لظروف عملنا.

تجاذبنا أطراف الحديث والطّرف عن الوحدة ومنتصف الليل، أثناء تناولنا العشاء.

عندما غادرنا المطبخ، استوقفنا صوت غريب، تظاهرٌ باللا مبالاة، تطوَّر إلى بعض الخوف، ثم إلى خوف أكبر مع كل خطوة، الأصوات أكيدة، تعلو وتنخفض.

لأول مرة نلاحظ أن منزلنا الجديد كبير، المسافة أيضًا من المطبخ إلى غرفتنا كبيرة.

رأينا أنه من الأفضل البقاء في المطبخ، قد يكون صاحب الصوت خلف أي باب، خاطر مرعب في منتصف الطريق من المطبخ الذي تراجعنا إليه في رعب.

لا شك أنه آمن؛ غادرناه لتونا، فيه أيضًا ما يصلح كسلاح.

دخلنا وأغلقنا الباب، وفجأة تذكرت شيئًا، تزيد الأصوات مع حركتنا، وتنخفض حدتها عندما نقف.

سنوات بعد هذه الحادثة، نتذكرها للطرفة، كانت الأحذية الجديدة في أقدامنا هي مصدر الصوت.

10 - جريمة

بكاؤها شبه دائم، صامتة معظم الوقت، لا تتقاضى راتبًا، فلا بأس إن أدت عملًا أو إن لم تفعل.

عرفتُ من أمها أن والدها طلب من مدير هذا المكان المجاور لمنزلهم، قبول وجودها؛ لتخرج من المنزل، وترى أُناسًا جُددًا على أمل تحسّن حالتها.

أشفق عليها كثيرًا، قصتها تشغل بالي، ما الذي حدث في حياتها من أجل كل هذا الحزن؟!

كنت شبه متأكدة أن السبب رجل، حبٌّ انتهى بشكل سيء، وبما أنها رقيقة، فلا شك بأن هذه المدللة، التي كانت أمها تأتي معها صباحًا، وتعود لأخذها عصرًا، لا شك بأنها ضخَّمت الأمر، وصورت لنفسها أنها تعيش مأساة من أجل من سيأتي غيره ثم غيره، جمالها يضمن هذا.

هذا الاستنتاج لم يجعل رغبتي في معرفة القصة تتراجع؛ قصص الحب لا تمل، رغم التشابه الشديد فيما بينها.

لم أسألها؛ لم أُرد مضايقتها، كما أنه من الممكن لو فعلت، أن أتسبب في بكائها في الوقت الذي تتوقف فيه عن البكاء، ليكن الصمت إذن، فربما تتحدث دون طلب، علي فقط الاهتمام بها.

بدأت أتعامل معها كما تتعامل ممرضة شفوق، مع مريضة لم يبق لها في الحياة سوى بضعة أشهر، أعد لها المشروب الذي تحبه، أرفض الأكل إن لم تشاركني، لا مانع من إطعامها بيدي، أتحدث معها حتى لو اكتفت بالرد علي بابتسامة أو بإيماءة، آخذ رأيها في بعض تفاصيل العمل، أصطاد المواقف الطريفة التي تحدث أثناءه من الموظفين والعملاء، فأضحك عليها وأشجعها على مجاراتي، أتكلم عن حياتي مراعية أن تكون بعض الأمور التي أخبرها بها مؤلمة بعض الشيء؛ لا بأس من إطلاعها على أكثر من قصة حب في حياتي باءت بالفشل، أقول لها: لست الوحيدة المتألمة.

مع الوقت حصلت على ثمرة لما أفعل، ابتسامة، حصلت على شكر وامتنان عميقين من الأم التي أكدت بعض التحسّن في وضع ابنتها في المنزل أيضًا.

علي الصبر حتى أحصل على ثمرتي المرغوبة، خانتني شجاعتي عندما وقفت والدتها أمامي فلم أسألها عن السبب.

من قال: إن السر في صدر المرأة مثل السم، إن لم يخرج منه قتلها، ما كان ليقول هذا، لو تعامل مع هذه الفتاة.

أكثر من أربعة أشهر احتجتها، حتى أعرف قصتها.

قالت: كان يوم خطبتنا أسعد يوم في حياتي، كيف لا، وهو حب عمري، مشاعره لا تختلف عن مشاعري، ربما تزيد عنها.

انتظرنا حتى تخرّجنا في الجامعة، ثم جاهزيته، بعدها بدأنا في خطوات إتمام الزواج، قبل هذا بشهرين فقط، يُتهم بجريمتَيْ قتل.

فترة لا بأس بها من الصمت بيننا، تخللها إعداد كوبين من القهوة، بعد الانتهاء منهما، أكملتْ: يتردد على منزل مديره لإتمام بعض الأعمال، أصبح صديقًا للعائلة، ذات يوم تأتي الشرطة لتقبض عليه وأمامه جثة زوجة صاحب العمل وابنها الذي لم يتجاوز السابعة من العمر، الكارثة أن زوجها يتهمه بقتلهما.

– لماذا؟ هل شك في أن هناك علاقة بينهما؟

– لا يمكن لخطيبي أن يفعل هذا، أثق بأخلاقه.

– هل وجد باب المنزل مكسورًا، هل هناك سرقة؟

– لا.

– اهدئي، وفكري خارج الصندوق، ما الذي دفع زوجها لاتهامه؟ لماذا قُتَل الطفل، هل رأى القاتل وكان يجب إسكاته، أم كان قتله مقصودًا؟

– لا دافع لديه للقتل، هذا هو بيت القصيد.

– أمر يجب أن تأخذه الشرطة في عين الاعتبار.

– بصماته على السكين.

– ما الذي ذهب بها إليها؟!

– أخرجها من صدرها، كان يحاول إنقاذها، أنا أصدقه، خطيبي لن يفعل هذا أبدًا، يؤكد براءته، رغم تعذيبه أثناء التحقيق، يقسم عليها بأغلظ الأيمان، سيُعدم بعد عدة أشهر.

– أعتقد أنك لا تعرفين الكثير.

بعد ما يُقارب العام، تنازل الزوج عن دم زوجته وابنه مقابل بعض الملايين (دِيَـة)، خرج الخطيب من السجن، لم يتزوجا، رفضت صديقتي ذلك.

11 - النيل الأزرق

لم يرغب الأولاد في اللعب معي يومًا، ينجذبون إلى أختي، وإلى صديقتي، وإلى زميلاتي في المدرسة، ولا يبالون بي، لا شك أن الأمر سيتغير عندما أكبر قليلًا.

المراهقة وتضاريس الأنوثة المصاحبة لها، لم تغير من الأمر شيئًا.

يلاحق الرجال زميلاتي في الثانوية، في طريق الذهاب والعودة، ويلقون بكلمات الإعجاب، يفعل ذلك أيضًا البائعون، كلهن يأخذن نصيبهن من كلمات الإطراء إلا أنا، لم يحدث ذلك لي حتى ولا من رجل أعمى؟!

أنا أجمل زميلاتي، لقد اعترفن لي بذلك، ما هو السبب إذن؟ هذا هو السؤال المُلِح.

لا تهتمين بنفسك؛ لا ترتدين ما يناسب جسمك، حذائك منخفض جدًا، نظارتك سميكة تحتل نصف خديك، لا تعترفين بمساحيق التجميل، شعرك لا يتغير، ثم تسألين عن سبب عدم التفات رجل إليك؟!

أنا: لون شعري يعجبني، لن أزعج نفسي بالعدسات اللاصقة، لن أؤذي قدمَيَّ وظهري بكعبٍ عالٍ، أما مساحيق التجميل فما زالت بشرتي نضرة وشابة، ستشيخ بشرتكن مبكرًا، بينما تبقى بشرتي جميلة حتى الخمسين.

– ما الفائدة منها دون زوج وأولاد، يا ذات البشرة الجميلة في الخمسين؟!

– أنتن حمقاوات.

– أنتِ كذلك.

– هي ما يُسمى (كاريزما) لا أمتلكها، هذا كل شيء.

وصلنا إلى الجامعة، أرض الفُرص لاصطياد زوج، كن يراقبن الطرائد، وكنت أدرس بجد؛ حتى أتخرج بأفضل تقدير.

للأمانة كنت مثلهن، راغبة في الصيد، ولكني فضلت صنارة الأخلاق والشخصية والتفوق العلمي.

سنوات الجامعة مرت سريعًا على الواقفات أمام المرآة، بطيئة على الجالسة بين الكتب.

صاحبات تقدير مقبول وجيد، تزوجن تباعًا، صنارتي لم تصطد سمكة سردين حتى.

أسبوع من حفل زفاف آخر زميلة لي، وها أنذا أقرر تجربة نصائحهن التي أثبتت نجاحها.

قصصت شعري وصبغته، عدسات لاصقة ذات لون فاتح، كعب عالٍ، زينة تناسب وقت خروجي، ما يناسب الصباح منها لا يناسب

المساء، والعكس صحيح، ملابس بعيدة كل البعد عن ذوقي الذي أثبت فشله بجدارة.

منظري غريب عني، ملامحي، تضاريسي، لا يهم رأيي في نفسي.

ثلاث غرز في شفتي العليا، وورم فظيع في وجهي، وكأني أجريت عملية تجميل فاشلة، حدثا في نهاية رحلتي بمنظري الجديد من غرفتي حتى باب منزلي، الذي سقطت واصطدمت به، وكدت أخسر أسناني الأمامية، المشي بالكعب العالي ليس سهلًا كما توقعت.

أسبوعان حتى التعافي، لم أقضهما في الندم على ما فعلت، بل في التدرّب على استخدام الكعب العالي، وفي التعرف عَلَيْ.

نزلت إلى الشارع، قبل أن أصل إلى المتجر المجاور لمنزلي، لفتُّ انتباه نصف المارة، ثم البائع، وبعض الزبائن.

أصبحت أذهب بهذه المكونات إلى كل مكان، بعد أقل من شهر، نجحت في الحصول على عريس مميز، لم أصدق أنه هو بادئ الأمر؛ ابن صاحب المتجر المجاور، والذي كثيرًا ما رآني.

بسعادة اتصلت على زميلات الدراسة ودعوتهن إلى حفل زفافي، وأخبرتهن بنجاح وصفتهن، لم أكن أعرف أن الرجل سهل إلى هذه الدرجة.

من المؤكد أن نزار قباني في قصيدته (النيل الأزرق) لم يكن يقصد أبدًا العدسات اللاصقة.

12 - جلطة

أعلن خطوبته قبله، مع أنه يصغره بخمس سنوات، زيارات من المهنئين ومن المهنئات، كنا أول من علِم وأول من هنأ، جدار منزل عائلته ملتصق بجدارنا، نستطيع القفز في أي وقت إلى بعضنا البعض.

أمي يقتلها الفضول؛ لمعرفة سبب تأخُّر الأكبر عن الزواج.

أمي: اجعلي الفرحة فرحتين، يصبح التعب واحدًا، وتوفيرٌ في النفقات.

الجارة: أرفض زواجه.

- أعلم أنه مدللكِ ولكن....

مقاطعة: يريد ابنة عم والده.

- ما المشكلة؟ تعرفونها جيدًا، ولا أدري....

مقاطعة: تكبره بخمسة أعوام.

- لا أراه سببًا كافيًا.

- بل أراه أكثر من كافٍ، لمَ يتزوج عجوزًا؟

- خمس سنوات جعلتِ منها عجوزًا؟ أنت لا تحبين أمها، أليس كذلك؟

– ولا أحبها هي أيضًا؛ أوقعته في شباك حبها، أكبر منه، لا شك أنها أذكى، هو فرصة لها تلك العانس.

– سمعت أن هناك من يتقدم لخطبتها.

– ترفضهم مدّعية حبها لابني، تريد من يصغرها؛ لتتمكن من التحكم فيه، قوية الشخصية، متكلمة لبقة، مدللة والدها.

– دعيه يختار زوجته، لقد اخترتِ للثاني، تنازلي مرة.

– لو كان لديها كرامة، لاكترثت لرفضي لها، وصل بها الأمر أن تخبره بأنها لن تتزوج ما لم يفعل هو.

– وافقي إكرامًا له.

– أعرف مصلحته أكثر منه.

– عليك إقناعه إذن.

– يرفض تمامًا، عنيد، يصرخ بي، يتحداني، يخاصمني لأيام، يسفّه كلامي، أصبحت كل تصرفاتي لا تعجبه، هي السبب.

– أليس دلالك الزائد؟!

تحب أمي دعم المحبين، حمامة غرام، تتدخل في زواج هذا وذاك، نصحًا ليس أكثر، حتى لا يُلقى عليها تبعاتٌ من أي نوع.

تابعت أمي معاناة ابن الجيران بشكل دوري، تزوج الثاني، وما زال مصرًا على موقفه، أمي معجبة ببسالته، ومعجبة أكثر ببسالة قريبته؛

فالضغط عليها أقوى مما عليه من كل الاتجاهات، تحاول أمي إقناع أمه، آخرون تدخلوا أيضًا لنفس السبب، قسوة مفاجئة من أقرب الناس إليه.

سنوات من التحدي، إعلان عن خطبة الأكبر، الحب انهار، البسالة نفذ رصيدها، بعد عدة أشهر القريبة تتزوج.

أقل من ست سنوات، أمي ذاهبة لعزاء الجارة.

أنا: لقد عانى زوجها من الغرغرينة في قدميه، موته أفضل من قطع الثانية.

أمي: الابن الأكبر هو من مات، أصيب بجلطة.

13 - هذا الشيء أحبه

في كل مرة أتناوله، يُصِر بكل وقاحة على ترك بصمته المزعجة، التي تجعلني مُعرِضة تمامًا عن تقشيره، بل وعن مجرد فكرة إدخاله إلى المنزل.

كابوس لذيذ، يُنفِّرني ويغريني، أحبه وأكرهه، أندم بعد تناوله، ثم ما ألبث أن أفعل هذا ثانية، بعد يوم أو حتى بعد ساعة، أفعل عندما أراه مجددًا، هكذا بكل بساطة، انتشاره حولي، يُسقِط كل أسوار المقاومة لدي.

في كل مرة أتناوله أصاب بشوكة أو أكثر، غالبًا تكون في أصابع يدي، انغراسها في مفصل يجعلني أقترب من البكاء، كل مجهودٍ في خلعها يبوء بالفشل؛ هي لا تُرى تقريبًا.

اعتدت الأمر، وأصبحت أترقّب المكان الذي ستختاره الشوكة، أمر مؤرِّق، ها هي تختار إصبع قدمي، ها هي واحدة في شفتي العليا، أدميتها بأسناني للتخلص من تلك المتطفلة، ولكن لا فائدة، أخرى في سقف فمي.

الاستسلام وإعطاؤها فرصة للانسحاب بمحض إرادتها، كان دائمًا عنوان معركتي معها.

14 - أزرار

لم يكن قد تم بعد اختراع الهاتف النقّال، عندما كانت مراهقة، ليس ذلك فحسب بل كانت الهواتف الثابتة أو الأرضية -كما يسميها البعض- تدخل إلى المنازل بالحظ أو بالقرعة أو بالواسطة.

تضحك في كل مرة تتذكر فيها كيف ارتجفت يداها ودق قلبها بسرعة، في كل مرة رن فيها الهاتف وأمسكت بسماعته، كان هذا وهي على أعتاب العاشرة، عندما امتلكت عائلتها واحدًا.

الرسائل البريدية، كانت هي الطريقة الثانية بعد الهاتف لتواصُل الناس مع بعضها البعض، كم كانت تحبها، كم كانت تحلم باليوم الذي تصلها فيه رسالة، ولكن للأسف كل صديقاتها من بنات الجيران ومن زميلاتها في المدرسة، وليس من المعقول أن تطلب من صديقتها التي تراها كل يوم أن ترسل لها رسالة بريدية، أن تصلها رسالة من رجل، أمر مستحيل، كيف سيحدث وهي لا تتحدث مع أحد أبدًا؟!

عندما وصلت إلى سن الخامسة عشر، بدأت تلاحظ شيئًا غريبًا يحدث حولها في مدرستها في فصلها.

كانت بعض الطالبات تتبادلن الرسائل، كان منها ما يصل لبعض المعلمات، كانت تسلم باليد، فكرت بمنتهى البراءة أن تفعل مثلهن،

ولكن ماذا ستكتب؟ ولماذا لا تخبر زميلتها أو معلمتها بما تريد وجهًا لوجه؟!

إنها للأسف لا تحمل شيئًا سريًا إلى هذا الحد حتى تكتبه في رسالة، تراجعت عن الفكرة واكتفت بالمراقبة، فلاحظت أن الأمر يتم بشكل هادئ جدًا قد يصل إلى السرية، تتم العملية في أكثر الأماكن خلوًا من الطالبات، كانت تراقب الأمر وتخشى السؤال، تجرأت ذات مرة وفعلت، وهنا عرفت أن هذا يسمى إعجابًا، يبدأ بالنظرات ثم يتطور إلى المطاردة، ثم الرسائل، وتكون الهدايا بعد ذلك، في حالة قبول الود، وأحيانًا في حالة رفضه؛ إذ ربما تُغير الرافضة موقفها.

كانت الفتيات محط الإعجاب قليلات، يتميزن بالجمال، وبالرشاقة، وبالطول، أحست أن الأمر وكأنه بين رجال وفتيات، تساءلت: هل هُنّ شاذات؟ هل هو مرض؟ ربما السبيان.

لا تستطيع إنكار غيرتها من الفتيات المُعجَب بهن، أحيانًا كانت تتمنى أن تصبح منهن، حتى ترضي غرورها، وربما لتقترب أكثر من الأمر، جعلها ما يحدث متأكدة بأنها ليست جميلة.

مضت الأيام، بين الهمز واللمز، وحديث العيون.

حدث أمر هز المدرسة، أو ربما اعتبرته هي كذلك، ذات يوم رأت طالبتين تخرجان من حمام واحد، لم يذهب تفكيرها بعيدًا، بل لم

تفكر كثيرًا فيما رأت، توقعت ببساطة أن شيئًا تمزّق في ثوب إحداهما، وكانت الأخرى تصلحه لها.

ولكن تم التعامل مع الحدث بصفته أخبث مما ظنت بكثير، ربما كانت هذه هي حقيقته، ربما كانت تلك نظرة من أوصلن الأمر لمديرة المدرسة، التي استدعت الفتاتين، وأجرت معهما تحقيقًا مطولًا.

سَمعتْ الكثير والكثير من الكلام، لم تشارك فيه أبدًا، وبصفتها طالبة هادئة لا تحب المشاكل نهائيًا، كانت تتفقد ملابسها كل يوم، حتى لا تضطر إلى الدخول إلى الحمام مع صديقة تصلح لها شيئًا، كانت تعيد تثبت أزرار ملابسها بشكل دوري.

15 - ابن الجيران

أبي يحذّر أمي من الجيران بعد انتقالنا حديثًا إلى هذا الشارع، خاصةً سكان المنزل المُقابل لنا؛ لديهم ابن شاب، عليها حمايتي من أي احتكاك، فنحن لا نعرف عنهم أي شيء بعد.

مع مرور الأسابيع والأشهر، بدآ يتحدثان كثيرًا عن ابن الجيران إياه، يشيدان بأخلاقه وبعائلته، نِعْم الجوار هم، يتحدثان عن إمكانية زواجي منه، كيف وهو في العشرين وأنا في التاسعة من العمر؟!

أجابت أمي عن سؤالي، وكأنها قرأت أفكاري، بسؤالٍ لأبي: هل سينتظرها؟

عرفت من حديثهما أنه ميسور، يستطيع أن ينتشلني من ضيق حال والدي، الزواج هو منزل خاص، وحلي ذهبية، وملابس جميلة كثيرة، وحفلات وحلوى، يا له من أمر رائع لا بأس من خوض غماره.

عدة سنوات إضافية فقط، تسمح لي بالزواج في محيطي، ستجعلني مناسبة للأمر، ما معنى مناسبة للزواج؟ لا أدري، ولكني سأصبح كذلك وحسب، هذا ما قاله والداي.

راقت لي الفكرة كثيرًا، أصبحت أركز على أي حوار يُذكر فيه ابن الجيران، أريد معرفة كل شيء عنه، أنا لا أعرف شكله حتى الآن.

بدأت أشعر بخجل شديد إذا ذكر اسمه، كل خبر عنه يستحوذ مساحة من تفكيري.

من خلف الباب ومن ثقبه، حاولت رؤيته أكثر من مرة، ولكن لم يكن واضح المعالم بما فيه الكفاية، المسافة لا تضمن هذا.

مرضي كان فرصة ذهبية للتعرّف عليه عن قرب؛ أخذني بسيارته مع أبي إلى الطبيب، لم أستطع رؤيته أيضًا، ولكني عرفت أنه أسمر، معلومة لا بأس بها.

ابتعدنا عن ابن الجيران؛ إذ تركنا المنزل، ما عاد أبي يتحدث عنه أبدًا، ما الحل؟ كيف أعرف أخباره؟ لم أكن أستطيع السؤال.

مرت السنوات وعرفت عن الزواج أكثر مما كنت أعرف، عندما يخطر لي ابن الجيران، أبتسم وأشرد، أتذكر أفكار الطفولة.

أخي في المرحلة الثانوية، يخبر والدي أن فلان يُدرِّسه مادة الكيمياء، فلان هو ابن الجيران.

وجدتني أحس بسعادة، أسأل عنه، دون لفت انتباه أحد، أنا أحبه، ما معنى الحب؟

سنه أخرى، وابن الجيران يأخذ إجازة من عمله ليتزوج، غصة في حلقي، لسعة انزعاج، غيرة، يا للعبث!

16 - تاريخ الصلاحية

اهتزي أيتها الأرض، فأنا أمشي فوقك.

ليست الثقة بالنفس هي سبب تصرفات هذا الشاب، كما كان يؤكد دائمًا، وتؤكد المعجبات به من زميلاتنا في الشركة.

توجيه الملاحظات القاسية، عدم مراعاة مشاعر أحد أو ظروفه، أسلوب الأمر الدائم، الصراخ أو الاستهزاء بالمخطئ، يعتبرنها قوة شخصية، بينما اعتبرتها ديكتاتورية.

كان يدخن داخل الشركة، بينما قانونها يمنع هذا؛ فقط ليخبر الجميع أن القوانين لا تنطبق عليه.

زملاؤه نوعان، من ينافقه، ومن يبدي امتعاضه منه، لا أحد يحبه، لا صديق له من بينهم، مديرٌ مزعج بكل معنى الكلمة، أمور عرفتها من التقاط الكلمات من المكاتب، أثناء تسليم العمل المطلوب مني طباعته.

العمل ثم العمل، مهارته، عضلاته المفتولة فيه، قدرته على جذب العملاء، أمر واضح لنا جميعًا، نحسده عليه سرًا وجهرًا، وأكثر ما يحلو له الحديث عنه.

العناد صفة يحبها كثيرًا في نفسه، يتباهى بها، لم يأكل مع عائلته منذ ثلاث سنوات بسبب خلاف مع والده، زاد وزنه ما يقارب عشرين كيلو

غرام، ولكنه لن يكسر كلمته ويعود لطعام المنزل، الذي اعتبره مجرد مكان للنوم بعد ذلك التاريخ.

يتبجّح بمشاكله معه، وبانتصاراته عليه، وكسر كلمته أمام الجميع، مع أن هذا الوالد هو من دبّر له عمله الحالي، هو مقرّب من صاحب الشركة لهذا السبب، هذا أمر ينكره، فمهارته في العمل هي السبب، المال ثم المال الذي يكسبه لهذا المكان هو ما يجعل المدير يدللـــه.

كسر كمبيوتره المحمول ذات يوم، عندما أغضبه عميل، المال لا قيمة له عنده، على حد تعبيره.

يركب سيارة غالية، لا يحب أن يركب أحد معه فيها.

في فترة الغداء، كان إما صامتًا تمامًا، وإما مسيطرًا على الجلسة بثرثرته، إما مزاح سخيف يجب أن نضحك عليه أو أن نبتسم، وإما حديث عن بطولاته في العمل في الشركة السابقة، التي اشتبك فيها مع ابن مالكها، لم يتوقع المغرور أن يراعي رب العمل ابنه على حسابه، كان عليه مراعاة من يجلب المكاسب، سيجعله ابنه يندم يومًا ما.

كنت أَحْـدَثُ موظفة في الشركة؛ لذلك كنت أكتفي بالاستماع والابتسام؛ حتى أفهم طبيعة كل شخص، وأتجنب أي تصرف يجعلني أخسر وظيفة لم أجدها بسهولة، بالإضافة إلى أن طبيعة عملي، لا تعطيني فرصة كبيرة لخوض حوار مع هذا أو ذاك، ثرثرة هذا الدكتاتور ساعدتني على تصرفي هذا.

موضوع واحد، كان يعجب الجميع كلامه عنه، تتعلق به أبصارهم وآذانهم حينها، لمعرفة كل صغيرة وكبيرة في كل قصة، علاقاته النسائية.

كم هو سهل أن يتحدث مع أية واحدة، وأن يحصل على رقمها، وأن يقيم علاقة معها، يصف كل شيء بالتفصيل، مكان اللقاء، النظرة الأولى، الكلمة الأولى، وصف شامل للفتاة، كيف بدأت القصة، كيف انتهت، إلى أي مدى وصلت علاقته معها، رجل لا يُقاوم، هذا هو العنوان العريض لوصفه في عالم الجنس الناعم.

صمتي، وعدم طوافي حوله، بل وعدم توجيه أي اهتمام به، أمور أثارت غضبه، أخبرني بهذا شخصيًا في مكتبي، ذات يوم غابت فيه زميلتي.

ابتسمت، وقلت له: أعتبرك أخًا، ألا ترى هذا أمرًا جيدًا؟

- هذه الجملة تعني أنني لا أعجبك، أترينني غبيًا؟

- لا ولكن...

لم تسعفني الكلمات، كلها تبخرت، عندما رأيت ملامح الصرامة تختفي من على وجهه، وتحل بدلًا منها وداعة لم أعهدها، جلس أمامي بهدوء، وقال:

أنا وابنة خالتي ولدنا في نفس العام، بل وفي نفس الشهر، أحببنا بعضنا منذ المرحلة الإعدادية، رسبتُ عامًا، وحتى تبقى معي في نفس المرحلة، تعمدت الرسوب.

في المرحلة الثانوية، حصل أبي على عمل في هذه البلاد، جاء بنا جميعًا معه، أمر لم أسامحه عليه، كنا نحاول إخفاء هذا الحب، كنت أسأل عن العائلة كلها حتى أصل للسؤال عنها، آخذ الهدايا للجميع أيضًا مثل السؤال، كلمة السر على كمبيوتري، اسمها وتاريخ ميلادها، بعد أن بدأتُ العمل، تقدمت لخطبتها.

نظر إلي بحزن، ثم تنهد وقال: لقد رفضت.

سألت بصدمة: لماذا؟

نحن في نفس العمر، أنا سأكبر وأنتَ ستبقى شابًا، لن أستطيع مجاراتك، نحن النساء نشيخ أبكر منكم أيها الرجال.

– هذا هو كلامها، وهي مُحقّة.

أهي مُحقّة لأنها كذلك؟ أم لأنك تحبها؟ أم لأنك لا تريد أن يخطر في بالك مجرد فكرة أنها أحبت غيرك في غيابك؟

ثبّت عينيه علي، جمدت ملامحه، قلت: هي مُحقة كما قلت أنت؟

نظر إلي بطريقة من يعرف أن لدي المزيد لأقوله: رأيها صحيح في حالتها، وفي حالة من ترى نفسها عبوة من التونة لها تاريخ صلاحية، أرجو أن تطلب منها عدم التحدث باسم النساء مرة أخرى، إذا قابلتها في يومٍ ما.

ترقرقت الدموع في عينيه وغادر، لأول مرة أشفق على دكتاتور.

17 - منزل العجوز

عات إلى المدينة بعد أسبوع قضته في الريف، تفاجأت بشدة عندما نَظَرت في المرآة، آثار قرص البعوض، تحتل مختلف مناطق وجهها.

تذكرت الآن فقط، منزل العجوز لا توجد فيه مرايا.

18 - أنا مدمنة

بدأت رحلة إدماني، في التاسعة من عمري، والدي ذو تعليم ضئيل، أمي أمية، لا يمتلكان معلومات تسمح لهما باكتشاف ما يحدث وما يدور في ذهني الصغير المتطلب المزعج، طالما يزعجني أنا فقط.

التفوق في الدراسة وعدم معرفة شاب، هما علامتا الاستقامة لدى والدَيْ.

أخي الذي يكبرني بعامين، جرّني إلى التعاطي، تعرّف على المادة في مدرسته، فأحضرها، اعتدتها أكثر منه، كان مُقلًا جدًا مقارنة بي.

حرك فيَّ الغيظ؛ عندما بدأ يحدثني عن توفر المادة في مدرسته، وعن تنوعها وسهولة الحصول عليها، حزنت كثيرًا وأحسست بالظلم لعدم توفرها في مدرستي، لا توجد تكافؤ فرص بين مدارس الأولاد والبنات في قريتي، التي تبعد مئة كيلو عن العاصمة.

كان أبي أيضًا، يحضر المادة إلى المنزل دون أن يتعاطاها، يحصل عليها من المساجد ومن بعض أصدقائه، الذين لم أكن أرى أنهم يتجاوزن مستوى تعليمه أو ثقافته أو عقله.

لم يكن يعلم أنها تسبب الإدمان، كنت ألتهمها دون علمه، ثم أصبحت أفعل أمامه، لم يتخيل أن تصل بي إلى ما وصلت، لجهله أم لإهماله لي؟ أصبحت مُدمنة حتى النخاع.

لم يكن أبدًا من العدل أن تدخل هذه المادة عقلي في هذه السن المبكرة، لم أكن سوى طفلة، جربت أكثر من نوع، قديم وحديث التصنيع.

نهمي يزداد، أصبحت مثل النار تأكل الأخضر واليابس، لجأت إلى أخي لإحضار المزيد من مدرسته، ومع الوقت تعرّفت على النوع الذي يثيرني أكثر، طلبت الاقتصار عليه، وعندما تكون المادة غثة، أدعمها بنوع آخر، ولكنه كان المفضّل دون منازع، لا أريد الخروج من الحالة التي يضعني فيها، أعيش في الخيال معظم الوقت.

ما زالت الفتاة متفوقة في الدراسة، ولا تعرف شابًا، ما زالت على الطريق المستقيم.

بدأ توحُّش المادة يزداد، ولكني مستعدة له، لها قاعدة في دماغي يُعتمد عليها، ما زال أخي مُقلًا وأنا في انغماس كامل.

الحروب والأحداث المعقدة والمتتابعة والمتسارعة في التسعينات، جعلتني أتعاطى المزيد والمزيد بشراهة منقطعة النظير، كنت لا أفيق أبدًا في بعض الأيام، كانت ردة فعل أخي مختلفة عني، كان الهدوء وكنت العاصفة، كان الثلج وكنت النار، كان رأسي مشتعلًا.

مستواي الدراسي يتراجع، ولكن ليس إلى درجة القلق، ما زلتُ لا أعرف شابًا، ما زلتُ على الطريق المستقيم.

بعض الملاحظات من أمي، تأنيب ولوم، مطالبة بالمزيد من التركيز، لم تكن تدرك مدى صعوبة هذا التركيز الذي تطلبه، الإهمال الطبيعي من أبي، الاثنان لم يلاحظا المرحلة التي وصلت إليها من الإدمان، خاصة وأني أصبحت أحصل على المادة من مدرستي، التي كانت تحوي مصدرًا للتوزيع، يناسب مدرسة تضم المرحلة المتوسطة والثانوية بين جدرانها.

الزرقة على الجلد، سيلان الأنف، اختفاء المال من المنزل، هي العلامات التي ربما كانت ستجذب انتباههما إلى حالتي، ولكنها غائبة.

إهمالي لجسمي، ولملابسي، ولكل ما يتعلق بأنوثتي، إهمال التفكير فيما تفكر به الفتيات في سني، وحدتي، انطوائي، حزني، عصبيتي، نقاشي في أمور خطيرة، لم تكن ذات دلالة بالنسبة لوالدي، حتى تدهور مستواي الدراسي في المرحلة الثانوية بشدة، لم يفعل شيئًا، الفتاة لا تعرف شابًا، لا زالتُ على الطريق المستقيم.

المواد التي ألقيها على مسامع الجميع في الإذاعة المدرسية، عدائيتي تجاه زميلاتي، أسئلتي الغريبة، شرودي شبه الدائم، بالإضافة إلى كل الأعراض التي أعانيها في المنزل، لم تلفت انتباه معلماتي إلى أن هناك شيء غير طبيعي داخلي.

من الواضح أنهن كن يحملن نفس نظرية والدي، لا أحد يلاحظ شيئًا، لا أحد يفعل شيئًا، أريد المساعدة، ولكن لا أعرف كيف وممن أطلبها، ربما لم أرد المساعدة من الأساس، الطالبة لا تعرف شابًا، لا زالت على الطريق المستقيم.

كل شيء كان يمر بسلام على الجميع إلاي، مراحل عمري تكاد تكون بصبغة واحدة.

مجموع ضعيف في الثانوية العامة، لا دراسة، لا عمل.

واحد وعشرون عامًا أكملتها، أحاول التعافي من إدمان الاهتمام بالسياسة بمجهودٍ ذاتي، وأحاول البقاء على الطريق المستقيم.

19 - ابنة الدبلوماسي

يُمنَع هنا اختلاط النساء بالرجال، لكنهم كسروا هذه القاعدة، يكفيهم هذا فخرًا؛ لذلك أحرص على حضور أي حفل زفاف سوداني أُدعى إليه، بعد أول مرة، عرفت أنها تجربة تستحق خوضها.

يأتون بفرقة موسيقية من الرجال، ثم يدمجون المدعويين من الجنسين في منتصف الحفل تقريبًا، للتواجد مع العروسين.

حتى الفجر يستمر حفل الزفاف، قاعدة أخرى كسروها.

بصمتهم المحلية في كل شيء؛ البخور، الموسيقى، الأغاني، الإيقاع، طريقة الرقص، اللغة العربية تتداخل مع اللغات المحلية، الملابس فاقعة الألوان، قطع الذهب الثقيلة، تزين كل ما يصلح لها من أجسام النساء، الحنة ليست من نصيب العروس فقط، بل العريس أيضًا، تتحنى الأيدي والأرجل، وبعضٌ من أفراد العائلتين، لم أعرف النظام الذي تسير عليه الحنة، رغم حضوري أكثر من حفل، الجميع تقريبًا يشارك في الرقص، رغم اختيار مكان الحفل لأنواع الأطعمة التي ستقدم، إلا أن الأطعمة المحلية متواجدة بقوة، غنية باللحوم، بالصلصة، بالبهارات.

في هذا الحفل، اسم القاعة يكفي لمعرفة ثراء العائلتين، والد العروس دبلوماسي، سيكون الحفل مختلفًا عما حضرته من قبل ولا شك.

المراسم متشابهة إن لم تكن متطابقة أيضًا، ولكن الاختلاف يكمن في الجودة، والنوعية، والكمية، الفخامة والبذخ في كل شيء؛ الحلوى الشوكولاتة المشروبات، (البوفيه) المفتوح للعشاء، الورود الطبيعية التي زينت المكان، الفرقة الموسيقية، ملابس المدعويين خاصة عائلة العروس، أكثر من شاشة عرض وضعت بجوار الكوشة تعرض حياة بطلة الليلة من الطفولة وحتى الآن، والدها تكفّل بكل شيء.

العريس سيأخذها للعيش في أمريكا، درس ويعمل ويقيم هناك، يا لها من محظوظة!

هي جميلة، حظها جميل، رأس العريس يعكس أضواء القاعة، أصلع تمامًا ولكن لم يحجب هذا وسامته، جسده متناسق، سيذهبان إلى أمريكا بعد الزفاف بأقل من شهر.

العروسان طافا بين المدعويين، الفتيات يتغامزن، والشباب يتهامسون كل شيء كامل.

بعد عام، طلاق وطفل، لا تعرف من أخبرتني إذا ما كان الطفل حصل على الجنسية الأمريكية، أم أن والداه لم يمهلاه.

20 - خيال علمي

حُفر عميقة في كل شارع، هكذا بدت لي بحكم قصر قامتي، أمر طبيعي لطفلة في السابعة من العمر.

قررت الحكومة عمل تمديدات لعدة أشياء في هذه القرية، في بداية العام الدراسي، فأصبح الذهاب إلى أي مكان معاناة بالنسبة إلي، الوصول إلى المدرسة هو المعاناة الأكبر.

أذهب وأعود مع بنات الجيران، نجتمع في نقطة معينة ثم ننطلق، كان القفز من على الحفر سهلًا جدًا لهن، بل لعبة، أما أنا فأخشى الأماكن المرتفعة، أليست الحفر مرتفعة أيضًا ولكن بالمقلوب؟!

أخشى القفز بشكل عام، لا نصيب لي في أية لعبة تقتضي ذلك، يقفز الجميع وأبقى أنا جالسة أراقب القافزات، وأتساءل عن قدرتهن على ذلك.

الذهاب إلى المدرسة ليست لعبة لي حرية الاشتراك فيها، هو أمر لا مفر منه.

أقف أمام الحفرة التي تتوسط المسافة بين المنزل والمدرسة، أعد من واحد إلى ثلاثة، ثم أحاول القفز، وهكذا مرة تلو أخرى، تشجيع

من المرافقات، ما يلبث أن يتحول إلى أمر وصراخ واتهامي بالجبن، وبتأخيرهن، أقفز بعد المحاولة الخامسة أو السادسة، أسير بخجل من نفسي، متسائلة عن سبب عدم قدرتي على ذلك.

تكرار الأمر يساعد على التغلب على الخوف، هذه الاستراتيجية لم تفدني، كانت نتائجها عكسية، يزيد خوفي مع كل مرة أقفز فيها.

كنت أدعو كل ليلة أن يتم ردم الحفر التي في القرية بسرعة، على الأقل التي في طريق مدرستي، اختفاء تلك الحفرة، أملٌ أحمله معي كل يوم.

ها أنذا أمام نفس الحفرة، نفس السيناريو، الفتيات يصفقن، يشجعن، يصرخن، ثم يهددن بتركي، الألم يعتصرني، خوفي يزداد، لم أذهب إلى المدرسة وحدي قبل ذلك، أخشى إضاعة الطريق، التهديد أسفر عن عجز كامل عن القفز، حتى مع المحاولة العاشرة.

مدرسة ابتدائية للأولاد، قريبة من الحفرة المشؤومة، جذب المشهد أحد تلاميذها.

أتى إلي، حاول إقناعي أن القفز ممكن، الحفرة ليست عريضة إلى هذه الدرجة، ولكن لا جدوى، قفز أمامي عدة مرات؛ ليثبت لي إمكانية الأمر، ولا أراني أزداد إلا خوفًا، لم يصرخ بي، لم ينفعل، لم يغضب؟

نظر حوله مليًا، وقع نظره على شيء، ذهب إليه، كانت خشبة وضعها جسرًا على الحفرة، مجددًا لا أتحرك، مشى عليها أكثر من مرة ليثبت لي متانتها، أخيرًا استطعت العبور.

لم أجد الجسر عند عودتي، محاولات وقفزات، وهذا الطفل لا يفارق خيالي، ردمت الحفرة، بل والحفر، مرت السنوات، قل خوفي من القفز، لم أفقده تمامًا.

أتذكّر الصبي أحيانًا، لا أجد في خيالي سوى جسد، صورته باهتة جدًا، أمر طبيعي، ليس بسبب السنين فحسب، بل لأني في ذلك اليوم، لم أتأمله بالشكل الذي يسمح لي بإدراك ملامحه، كانت باهتة منذ البداية، لم أوجّه حتى كلمة شكر إليه، كنت خجِلة جدًا من نفسي، أركض حيث الفتيات، أخشى التأخر، كما أن كل شيء فيَّ كان معطلًا، من الجيد أن رجلاي عملتا.

كلما تذكرته، أرسلت له رسالة من خيالي، كما قرأت في كتاب عن التخاطر، أطلب منه التقدم لخطبتي، لا أعده بالموافقة؛ ليست المسألة بهذه البساطة، أريد رؤيته، هذا هو السبب الأول والأهم.

بعد كل عملية تخاطر – كما أسميتها– أضحك من نفسي، لا بد أن استهزائي هذا، هو سبب فشل العملية.

21 - ديمقراطية

أذهب إلى العمل مشيا، ميزة ولا شك جعلتني أتغاضى عن منغصاته؛ الإرهاق ساعات عمل طويلة، أقف معظمها، عمل في بعض الجُمَع، الراتب لا يعوض هذه الأمور.

كيلو متر تقريبًا إلى المكان، تكون الحركة المرورية فيه شبه منعدمة، في توقيت ذهابي.

سيارة تسير خلفي ببطء، لم ألتفت إليها، ما زال هذا شارعًا للسيارات.

انتظري من فضلك.

جاء صوته هادئًا، ألتفت فأجد شابا وسيما أنيقا ذا ابتسامة ونظرة مهذبتين، ينظر إلي.

طريقة وقوفي، المسافة التي أحاول الحفاظ عليها بيننا أثناء تقدمه، أخبرته أني خائفة.

- لن أؤذيكِ، لا داعي للخوف.

نظرة خاطفة للسيارة رأيت فيها شابان، ستخطفني أيها المهذب المجرم، لا بأس بالتظاهر بالثبات، حتى أجد مفرًا.

دارت هذه الأفكار سريعًا في خيالي، سألته بقوة: ماذا تريد؟

- نرغب بأن تأتي معنا.

الثلاثة يستطيعون حملي وإدخالي عنوة إلى السيارة، ما زلت واقفة على قدمي، أمثل الثبات، أتساءل باستغراب: نعم؟!

- سنقضي وقتًا لطيفًا .

تراجعت بقوة، لم أعد أستطيع إخفاء الرعب في داخلي أكثر من ذلك، وقف الكلام الذي لم أجده في حلقي، غبي هو؛ لو لم يفهم حالتي.

- لا داعي للخوف، أو الصراخ، قولي لا، وسننصرف حالًا.

نطقت أطول جملة نطقتها في حياتي: لا.

صَدَقَ في كلامه، أمر لم أستطع استيعابه، ما زلت أتوقع إشارة منه لزميليه فينزلان بسرعة لاقتيادي، أو حملي إلى السيارة، لم أكن أستطيع الصراخ، فما بالك بالركض، جسمي خلا تمامًا من الدماء.

شكرني، ثم عاد إلى سيارته، وابتعد بهدوء.

22 - توصيل (دليفري)

الحفر، ضيق الشوارع، الأزقة المظلمة، القمامة في كل مكان، ، الباعة الجائلون، التعدي عل الرصيف، هذا في حالة وجوده، القطط، الكلاب، الفئران، ابن عرس، الحشرات، المنازل الصغيرة، طوب المباني لا يُغطى من الخارج، ومن الداخل أيضًا في بعض الحالات، الروائح الكريهة تنبعث من كثير من الأماكن، مياه على الأرض في أوقات وأماكن متعددة، لا أعلم إن كانت نظيفة أم مياه الصرف الصحي، الشجار بين كل الفئات في أوقات كثيرة، الصراخ، الشتائم، الألفاظ الجنسية، ينطقها حتى الأطفال، أصوات متنوعة تتحدى بعضها في السيطرة على الأجواء، الهدوء اختراع لم يسمعوا عنه بعد، الفقر المدقع، مظاهره في معظم الزوايا.

هذا هو الحي الشعبي الذي أعمل في مدرسة يتبعها.

ما لفت انتباهي هنا، توصيل المخدرات، الأطفال والمراهقون يعملون (دليفري) داخل الحي وخارجه، عرفت هذا من المعلمات وباقي الموظفين في المدرسة، من تهامس التلاميذ، تباهي بعضهم بمكاسبه.

عرض بعضهم المخدرات علي، أستطيع طلب النوع المفضل لي أو لزوجي، وسأحصل عليه بسعر جيد، والأهم، بمستوى نظافة سيعجبني، أخيرًا وجدت شيئًا نظيفًا في هذا الحي.

زميلاتي يتعاطين الدروس الخصوصية، أرفض هذا تمامًا، التعليم رسالة وحب بالنسبة إلي، والدي متوسط الحال يعطيني مثل مرتبي؛ لأستمر في التعليم على طريقتي، رسالة يؤمن بها معي.

لم يحببني التلاميذ كما توقعت، حتى مع إعفائي لهم من الواجبات المنزلية؛ فأنا الوحيدة، التي تصيبهم بالصداع من شرح الدروس، والتي تحرص طوال حصتها على انتباههم، كما أعمل بكل الطرق على إبقائهم في المدرسة إذا كانت حصتي متأخرة، وتبلغ بي الوقاحة أن أعطيهم أنشطة خلال اليوم.

زواجي جاء بعد قصة حب، يعطيني زوجي بدوره المال، يسعده ما يسعدني، يزعجه أحيانًا انشغالي واستيقاظي المبكر، ولكنه يحترم كثيرًا ما أفعل.

معركة بالأسلحة البيضاء أمام المدرسة، جعلته يطلب مني ترك للعمل، مع أني بقيت بعيدة عما حدث، تصفية حسابات بين عصابات.

لأول مرة أخبره عن عالم المخدرات الذي يعيش حولي، أسأت من حيث أردت الإحسان، زاد خوفه، رجاني ترك هذه المدرسة على الأقل.

أنا: أرى أنهم بحاجة إلي، أكثر من تلامذة المدارس الخاصة.

أيام وأيام بين شد وجذب، قراره النهائي: يجب أن يرافقني حارس شخصي.

حل رضخت له، مع الوقت سأقنعه بالتخلي عن هذا الحارس، الذي ساعدتني طباعه على تقبله؛ هادئ، غير فضولي، مؤدب، قليل الكلام.

أنتظر الوقت المناسب حتى أتخلص منه، إطلاق نار كان قريبًا جدًا مني، جعلني أعرف أن الأمر تأجل إلى أجل غير مسمى.

حصلت على طلاق وجرح عميق، ربما لن يبرأ يومًا؛ الحارس الشخصي أخو زوجي من أبيه، لا يعرفان بعضهما، زوجي لم يذكر اسمه بالكامل أمامه أبدًا، حراستي لم تكن هي المقصودة من توظيفه، الرصاصة لم تكن حرب عصابات، كانت موجهة إليه؛ لأنه أقام قضية للمطالبة بحقه من ميراث والده من محل تجاري، محاميه يتولى التعامل مع زوجي، المحل الصغير التافه، يتم شق شارع بجواره.

23 - بريق الألماس

ستحملين لقب عانس.

هذا ما قالته أمُّ منى لها، عندما احتفلنا معها، نحن صديقاتها الأربع، بعيد ميلادها الثامن والعشرين، نظرت لها والدتها والحزن في عينيها، وأكملت: لم يبق أمامك سوى عامان حتى تصلي إلى سن الخطر.

نظرات استغراب، وربما تأييد منا حظيت بها الأم، بينما أطلقت صاحبة الحفل ضحكتها العالية المعهودة، والتي لطالما طالبتها أمها بخفضها، وقالت لها، شعارها الدائم: عمر الإنسان ما يحس به، لن أكبُر أبدًا.

تزوجت الأولى منا، كنا سعيدات بذلك، تفاءلنا؛ اعتبرنا الأمر دليلًا على بدء العد التنازلي في مجموعتنا، بعد فترة ليست بالطويلة، تزوجت الثانية ثم الثالثة.

اجتماعاتنا مع المتزوجات قلت كثيرًا، الزيارات، الخروج سويًا، التسكّع في الأسواق، كل شيء تقلّص بشدة، حتى المكالمات الهاتفية أصبحت أقل، وأقصر؛ الحجج معروفة، سهلة، جاهزة مثل المعلبات، المنزل والزوج والأولاد.

قلة انزعاج منى، بل وعدمه، كان يُغيظني أحيانًا، كانت مُصرّة على التفاؤل والضحك، لم تكن تأبه بالأمر، سعيدة في عملها، دائمة التفكير فيه والكلام عنه، أما أنا فكنت لا أتحدث إلا عن زواجنا الذي تأخر، وعن هجران الصديقات لنا.

رفضتُ الاحتفال بعيد ميلادي الثلاثين، ألقيت بكيس الشمع الذي أحضرته لي منى جانبا، واعتبرت الأمر شيئًا جارحًا، وليس مُزحة أو مفاجأة كما اعتبرته هي.

– أخبرتكِ بأني لن أحتفل به، وبأني سألغي الاحتفال بعيد ميلادي نهائيًا؛ لا أريد شيئًا يذكّرني بعمري.

ضلت طوال الليل ترفه عني، تحاول إضحاكي، أجبرتني على مشاهدة فيلمٍ كوميدي، ضلت تحاول إقناعي بالبحث عن عمل بدل الذي تركته، أو استئناف دراستي، أو حتى دراسة شيء جديد، تطوير هواية ما، الانخراط في عمل تطوعي، اختلقت الحجج لأ لا أفعل، أُمضي يومي في النوم حتى الظهر، وفي الكلام معها على الهاتف.

اتصلت بها وأنا أبكي بحرقة ذات يوم، طلبت رؤيتها فورًا، هرعت إلى منزلي، وعندما عرفت السبب، ضحكت كثيرًا، تألمت، زاد بكائي، عندها توقَّفَت وحاولت التهدئة من روعي.

لم تكن ترى أن بضع شعرات بيضاء سبب حتى للقليل من الحزن، فما بالك ببكاء وصل لحد النواح.

لم يكن هذا رأيي أبدًا، لقد أصبحت عجوزًا، اعتبَرَت كلامي غباءً، وعزت الكارثة إلى صبغي المتكرر لشعري، وليس لشيخوخة أصابته.

منى: اعتبريه كما تقول كلمات أغنية، بريق الماس.

هذا التشبيه لم يعزيني، بل جعلني أكره هذا الحجر البراق الرائع، كل يوم، أقف أمام المرآة، أنزع أية شعرة بيضاء تتجرأ على غزو رأسي.

لم أبال باعتراض الجميع على تصرّفي، وبتأكيدهم بأن هذا التصرف سيزيد منه، لم أتوقف عما أفعل، حتى بعد أن أرتني منى شعرها، الذي تم غزوه أيضًا، يا لوقاحة الشعر الأبيض! يتبجّح بالانتشار هنا وهناك، ولا يبالي بتنوع الأسلحة التي تستخدم ضده، نتف وصبغ وقص.

كل الطرق لا تزيده إلا وقاحة وضراوة وإصرارًا، على احتلال المزيد والمزيد من المواقع.

فرحت منى أكثر مني، عندما تزوجْتُ، كان هذا قبل أن أكمل عامي الثالث والثلاثين، ومع الحياة الجديدة، فعلت معها ما فعلته صديقاتنا القديمات بنا.

خمسة أعوام من تاريخ آخر مكالمة مع منى، تقابلنا صدفة في حفل زفاف، غرقنا في العناق وفي القبلات، جلسنا، تحدثنا.

ما زالت على حالها، تخوض نفس الأحاديث تقريبًا، مُصرّة على عدم تغيير لون الغازي في شعرها، دعتني إلى حفل عيد ميلادها

الأربعين، ولكنها، ولأول مرة، تُبدي ضيقها من اقترابها من سن الأربعين دون زواج.

منى: ليس سبب عدم تغيير اللون الأبيض، إصراري على أن عمر الإنسان ما يحس به فقط، بل أيضًا حتى لا أنسى أن الأيام تمر، فأنسى عمري الحقيقي، الشعر الأبيض، صافرة تلفت انتباهي إلى مرور الأيام.

منى، مُقنِعَة من جديد.

24 - مخطوفة

قطرات تطورت إلى مطر غزير من القصص، مع تزايد المشتركات في قسم العلاج الطبيعي الخاص بالظهر، في هذه الشركة التي أعمل فيها منذ أشهر.

نصف ساعة هي أقل مدة تمكثها المشتركة على السرير المكلّف بالتدليك، أسرّة متجاورة، تتبادل عليها المشتركات أطراف الحديث عن ما يخطر وما لا يخطر على البال، المآسي، الطُّرف، أخبار التسوق، سوق الأسهم، المناسبات السعيدة والحزينة، مشاكلهن الزوجية، مشاكل أولادهن، أنظمة الحمية، تعقيدات الحمل والولادة، أحلامهن، خططهن المستقبلية، أمراضهن، الكثير يقال بين هذه الجدران.

عندما تجد إحداهن نفسها وحيدة تطلب مني الحديث معها، أو تطلب رأيي، قصص ومشاكل إثر بعضها، مؤلمها أكثر من سعيدها.

إحساس بالألم، بل بالاكتئاب، رغبة في البكاء، كره للزواج، للرجال، للأطفال، لقطاعات كثيرة في المجتمع، للحياة، لنفسي، أمور بدأت أحس بها من حين إلى آخر، مشاعر لم أكن أرى لها سببًا، أدركت متأخرة أنها نتيجة ما أمتص من قصص صاحبات الظهر المصاب، كان مجرد إدراك السبب ضربة موفقة.

عدم مشاركتي الحديث إلا إذا طُلِب مني بإلحاح، إغلاق الموضوع المؤلم بسرعة، التحجج باجتماع مفاجئ فانسحاب إلى الخارج حتى يتغير الموضوع، تشجيع المتفائلة منهن على الكلام، اتصال مني لنفسي عندما يشتد وطيس القصة، تذكيرهن أن وجودهن فرصة للاسترخاء والخروج من مشاكلهن، ستكون الفائدة أكبر إن بقين هادئات، تخفيف الإضاءة في القسم، أمور لجأت إليها لتخفيف الصدمات على نفسي.

ذاكرتي القوية تضمن ترسّب القصص المؤلمة في ذاكرتي سنوات طويلة، ربما إلى الأبد، لن أعرف أبدًا.

أربعة عشر عامًا مرت على سماعي تلك المأساة، أتخيلها، أحاول إيجاد حل لها، أضع نفسي مكان الفتاة تارة، ومكان رجال الشرطة ومكان العجوز تارة أخرى، أحيانًا يشطح خيالي فأضع نفسي مكان أحد المجرمين، أتخيل شخصياتهم الخمسة القذرة، أفزع من مجرد فكرة وضع نفسي مكان والدتها.

قالت إحداهن تهدئ من روع مشتركة لها قصة مؤلمة: قصت علي عجوز قصة

ستهوِّن عليك ما تشعرين به.

هي بائعة في سوق شعبي، تأخرت ذات ليلة فيه مع بعض الزبائن، بعد أن أتمت صفقتها، بدأت تجمع بضائعها كعادتها، السوق لم يعد فيه أحد تقريبًا، دون مقدمات، يد توضع على فمها، وتُحْمل السيدة

وتوضع في سيارة يحيط بها ملثمون، يأمرونها بالهدوء، تبكي وترجوهم تركها، تخبرهم بأنها عجوز لن يجدوا معها أية متعة، تذكرهم بأمهاتهم، يطمئنها أحدهم: لن نفعل بك ما تتوقعينه.

ألف سؤال دار في ذهنها عن سبب هذا الاختطاف، وصلت السيارة المظلل زجاجها، إلى حي تبينته، قبل أن يتم تغطية عينيها.

صعدت معهم إلى شقة، قال لها أحدهم: هناك في هذه الغرفة فتاة، ستقومين بتوليدها، ثم نعيدك حيث كنت.

لم تجد وقتا لتصاب بالصدمة، إذ فُتِح باب الغرفة وتم دفعها فيها، بعد ذلك أُغلِقت بالمفتاح، كان فيها ما اعتصر قلبها، فتاة عشرينية، في حالة مخاض.

كان من الطبيعي أن تسألها العجوز عما يحدث، أخبرتها المسكينة أن هؤلاء خمسة من الرجال، اختطفوها منذ ست سنوات، يتعاقبون على اغتصابها، وإذا ما حدث حمل، يأتون بمن تساعدها على الولادة.

سألت بفزع فوق فزع، لم تعد تعرف مداه بداخلها: كم مرة حدث هذا؟

الفتاة: هذه رابع مرة.

– أين يذهبون بالطفل؟

– غالبا يقتلونه، قتلوا أحدهم أمامي.

صمتت، وكادت تغيب عن الوعي، كم تمنت ذلك، ولكن صراخ الفتاة أعادها إلى الحياة، أثناء محاولتها مساعدة المخطوفة، ترجتها أن تخبر الشرطة، أخبرتها باسمها وبمكان عائلتها.

بعد انتهاء المهمة، دخل أحدهم وسحب العجوز من الغرفة، وغطى عينيها، وأعادها من حيث أخذها.

فور ابتعاد السيارة عن المكان، أسرعت إلى أقرب قسم شرطة، وقصت عليهم كل شيء، كم كانت ترجوهم إنقاذ الفتاة والقبض على الجُناة، كانت تبكي بهستيرية مع كل كلمة تنطق بها، حاول رجال الشرطة تهدئة روعها ولكن دون جدوى.

أخيرا هدأت قليلًا، سألها المحقق: هل تعرفين عنوان المبنى؟

العجوز: لا، أعرف الحي.

– عشرات المباني فيه، في كل مبنى ما لا يقل عن ثماني شقق.

– فتشوها.

– الأمر مستحيل، هل تستطيعين تمييز أي من الذين اختطفوك؟

– لا.

صمتت قليلا ثم قالت، وكأن فكرتها لا مثيل لها: أخبروا أهلها على الأقل، طمئنوهم بأن ابنتهم على قيد الحياة.

– نحيي الأمل في قلوبهم، ثم ماذا؟ نقتلهم بأننا لا نستطيع العثور عليها.

سؤال يخرج من فمها بصعوبة: ماذا إذن؟

– هناك بلاغ من عائلة هذه الفتاة باختفائها عندما كانت في السادسة عشر من العمر، ولكن ما باليد حيلة.

غادرت قسم الشرطة، أحست أنها كبرت عشرين عامًا، بل أكثر، لم تعد كما كانت، لا شيء عاد كما كان أبدًا.

كل ليلة تبقى إلى نفس الوقت الذي بقيت فيه تلك الليلة، بعد عشرة أشهر، تطوّر الأمل لديها إلى تأكيد بأنهم سيأتون لأخذها مرة أخرى، تجد نفسها تتخيل ما الذي تستطيع عمله عندها، تجد نفسها لا تريد أكثر من رؤية الفتاة، ربما سترجوهم أن تبقى معها.

25 - الضحية والجلاد

الصمت، اعتدال الصف، الثنائيات في المقدمة، الوحيدة في الخلف، هذا هو المطلوب من طابور الصباح، الشيء المفقود هو أن تكون الطويلة في الخلف، والقصيرة في الأمام.

المرحلة الابتدائية تليها المتوسطة، تليها الثانوية.

الأصوات عبارة عن همسات (سو.. سو..سو.. سو..سو)، تهدأ كثيرًا فور وصول المعلمات، تنقطع ما تزيد عن ألف همسة، عند ظهور المديرة من علٍ.

إذاعة صباحية مملة في الغالب، ثم إشارة بدء التحرك إلى الفصول، طابور يتبع طابورًا، معلمات يتخللن الطالبات؛ حفاظًا على أكبر قدر من الهدوء، منع الاشتباكات، منع الركض على الدرج؛ قد يسبب هذا سقوطًا، فدهس للقصيرات، بكاء للصغيرات المنتسبات حديثًا إلى المدرسة.

كل يوم تسير أمور الطوابير بشكل شبه متطابق، نفس النظام، نفس المشاكل، نفس الأخطاء، نفس الأصوات.

فجأة، صراخ غير عادي، هرج، ومرج، تدافع، اصطدام طالبات يدخلن فصولًا ليست لهن، معلمة تهرع إلى نقطة الحدث، أمرٌ بالهدوء، سؤال صارم عن السبب.

صراخ من عدة طالبات: فأر، هناك فأر.

هل خافت المعلمة مثلنا؟ سؤال لن نعرف إجابته أبدًا.

تمالكت المعلمة نفسها، وأمرت الجميع بضبط النفس، والتوجّه كل واحدة إلى مكانها: كل هذا الفزع من أجل فأر؟!!

رجلاي لا تصلان الأرض، هكذا جلست في مكاني؛ أخاف الفئران لدرجة التجمد، نظري يجول ويصول في الفصل، كيف أهدأ بل وأدرس أيضًا، وهو مجهول الأرض والسقف؟! يومٌ فأري غير متوقع.

رجلاي على الأرض، لقد وصلني خبر موت الفأر، قتله بمعنًى أصح، مات دهسًا بالأحذية أثناء التدافع، ربما يكون قد مات بجلطة من فزعه من الطالبات الفزعات منه، ثم تَمَّ دهْسُ جثته.

التشريح وحده من يستطيع قول الكلمة الفصل.

26 - المدير

في طريقي لمقابلة العمل الثانية على التوالي، أحسست برفض داخلي له، لطالما وثقت بحاستي السادسة، لدرجة أني هممت بالانصراف دون مقابلة المدير، تمنيت أن ألا أجده، أو أن أجده مشغولًا؛ لأحمله مسؤولية مغادرتي.

وسيم إلى درجة مزعجة، هادئ لطيف أعطاني نصيحة رائعة: لا تقولي لا، لما يقدم إليك.

بدأت العمل في اليوم التالي، الثقة التي منحني إياها، التشجيع، استماعه بعناية إلى أفكاري، نقده الهادئ لها، تنفيذ بعضها حتى لو لم تكن مقنعة له، مراعاته لأي ظرف طارئ في حياتي، حله لأية مشكلة أتسبب بها، تجاوزه عن أخطائي وعدم لومي عليها، أمور جعلتني أتعلّق به بقوة، وأحس بالأمان في وجوده، أحسست بالفعل أن المكان مكاني.

سخرت من مجرد فكرة أن أقع في حبه، دبلة في يده اليمنى أعلنت أنه لغيري، لم أكن لأغفر لواحدة تقترب منه لو كنت مكانها.

رددت على معاملته، بإخلاص والتزام ونشاط في العمل، تقبّلت عن طيب خاطر عدم وجود مقابل مادي، على المهام الزائدة؛ مثل المعارض، ساعات العمل الإضافية، زيارة بعض العملاء.

بعد أقل من شهرين، أصبحت موضع حديث كل زملائي، أصبح اسمي مرتبط بكل ما هو ممتاز في هذا المكان.

صوته، عطره، رؤيته، الوقت جعلني أعشقها، كنت أقع في حب المدير رغما عني، ربما دون أن أدري، كان الاعتراف بالأمر صعبًا جدًا، حاولت الإنكار، وإخبار نفسي بأنها مشاعر مخزية لا تليق بي.

في زاوية مظلمة من قلبي، أحكمت إغلاقها، حبست تلك العواطف، أقاوم انفلاتها من معقلها كل يوم، قللت كل مالي سلطة عليه إلى أقصى درجة؛ النظرات، الكلمات، التصرفات المراعية له إلى أقصى درجة، والتي كنت أعتقد كثيرًا أنها تفضحني، لطالما كانت لغة الجسد هي الأصدق، يتعلّم الإنسان الكذب عندما يتعلّم الكلام.

بعد فترة، رأيت أنه لا ضير من إطلاق سراح هذه المشاعر، هي ليست بيدي، لأفعل بيني وبيني، لن يعرف أقرب الناس إلي، سأكون حريصة جدًا عند التعامل معه، أمام الآخرين، أصبحت أكبر من سِجْنِها.

خففت هذه الفكرة الضغط الواقع على كاهلي، ولكنها جعلت حبي له يترعرع ويزدهر، سمحت لنفسي بتأمل كل تفاصيله الحسية والمعنوية، أمر لطالما قاومته، لم يؤثر هذا مع تقبُّل زواجه بعد عدة أشهر، تقبلت أيضًا فكرة زيارتها المكان، رغبت بشدة في مقابلتها.

لم يُعبِّر يومًا عن أية مشاعر نحوي، مع أن أسلوبه في الحوار، دعاباته، اهتمامه، نظراته أحيانًا، كانت توحي بالإعجاب الشديد، لم

أفسّر هذا أبدًا على أنه حب، لن يفعل مع أخرى، قلبه مع صاحبة الدبلة، زاد احترامي له، وحبي أيضًا.

سافر حيث عائلته لإتمام مراسم الزواج، وعندما عاد، اقترحت زميلتي تقديم التهنئة، قبل أن نقوم بهذه الخطوة، عرفنا أن الزواج لم يحدث؛ خلافات لم تحل.

أخبرني عن السبب، شخصية عنيدة، تطاولات منها ومن عائلتها.

كل شيء رقص بداخلي، كل ما بدا مستحيلًا، أصبح أقرب إلي مما أتصور، تخليت عن حرصي معه في كل شيء، زاد اهتمامي بمظهري، إنه حبي الأول.

ذكاؤه لن يخطئ مشاعري أبدًا، كل همي أن لا يلاحظ أحد من زملائي شيئًا، أما هو فلا حذر معه أبدًا.

أشهر تمر، ولا توجد حقيقة أمسكها بيدي، لم يكن بيني وبين أن أخطبه إلا خطوات، لطالما فكرت في مشيها وليكن ما يكن، ولكن كرامة حالت بيني وبين الأمر، وبيني وبين مجرد أن أبادره بما أكنّه له.

سافر مجددًا في إجازته السنوية، لن أراه ثلاثين يومًا، لن أسمع صوته، لن أشم عطره، لتكن فترة اختبار لمشاعري، ربما سيُخبر عائلته عني، سيخطبني عند عودته، فكرة جعلت الأيام مشرقة أكثر، وتمر ببطء أكبر.

عاد من السفر، رقص المكان بأكمله، اجتماع في مكتبه لتهنئته بسلامته، ولإعطائه تقريرًا عن العمل فترة غيابه، مشيت بهدوء، تركت

قلبي وابتسامتي العريضة خلفي، سأبعد عيناي عنه ما استطعت، خوفًا من افتضاح أمري هذه المرة، الشوق سيفعل.

فور جلوسي لمعت في إصبعه دبلة، ليست في اليمنى بل في اليسرى، الأرض تدور، علي الاحتفاظ بتوازني، نبرة صوتي، السعادة بداخلي تحولت إلى وحش يريد الصراخ في وجهه، صعوبة السيطرة على الوحش فاقت صعوبة السيطرة على الحب.

انتهى الاجتماع، قال لي: ابقي قليلًا.

غادر الجميع، يمد يده اليسرى أمامي بمنتهى الوقاحة: لقد عقدت قراني.

- مبارك، متى الزواج؟

- بعد العيد القادم مباشرة، كيف أنت؟

- بخير.

- هل هناك ما يزعجك؟

- كلا.

- تستطيعين العودة إلى عملك.

غادرت مكتبه غاضبة من نفسي: ما بكِ أيتها الجبانة؟ لم لم تتحدثي؟! تسألي؟ تتهمينه بالتلاعب بمشاعرك، بخداعك؟ لِمَ لمْ تخبريه بأن القطط والكلاب في الشوارع تتزوج؟! هو لم يفعل شيئًا مميزًا.

لم أكن أستطيع منع دموعي، ولا جعلها تفيض أمام الآخرين، بكيت في الحمام، وخطر لي: هل القطط والكلاب تتزوج؟

أنا: أريد إجازة مفتوحة، أنا مريضة.

المدير: لك هذا، أتمنى لك الشفاء العاجل.

لم أكن أدّعي ذلك لتجنب رؤيته، مرضت بالفعل، مريضة بالحب من طرف واحد –أمر سمعت عنه– من الخداع، من الوهم، من الغباء، لست متأكدة من السبب، الأكيد هو ما أعيشه الآن، ليس تعبًا نفسيًا فقط، أحس بخمول شديد، ألم في جسدي كله، لا طاقة لدي، بعض خطوات تصيبني بالتعب، لا رغبة في الأكل، لا أستطيع الحراك من السرير إلا في أضيق الحدود، أنام معظم اليوم.

الدموع تخنقني، هائلة لدرجة أن ازدحامها لم يسمح لواحدة منها بأن تُفلت وتريحني قليلًا، اختناق شديد بها.

أشد ما آلمني وفاجأني أني لم أكرهه، لم أستطع؛ فضله علي لم يسمح بهذا.

هل أذهب إلى الطبيب؟ ماذا سأخبره؟ لم الطبيب وأنا أعرف العلة؟ متى سأشفى كان هذا هو السؤال المهم.

المدير: ما هذا؟

أنا: استقالتي.

– لماذا؟

يدّعي عدم معرفة السبب، دمي بدأ بالغليان، سأكون أكثر برودًا منه: لم أعد أرغب في العمل هنا.

- هل وجدت غيره؟

- لا.

- ما السبب إذن؟

- لم أعد مرتاحة هنا.

- هكذا فجأة؟

- منذ فترة، وكنت أحاول إقناع نفسي بالاستمرار، ولكن دون جدوى.

- أخشى عليك البقاء دون عمل.

تخشى علي، وكأن الأمر يهمك.

أنا: لن آتي هنا بعد اليوم.

- ابحثي عن عمل أولًا، وعندها سأقبل الاستقالة عن طيب خاطر، لن تكذبي علي في شأن عثورك على آخر، أعرف ذلك، وأرجو أن أعرف سبب تركك للعمل.

يعرف ذلك، كيف لا، وهو يعرف كيف أفكر، بم أشعر، يخبرني بأشياء عن نفسي وكأنه صديق طفولة، لا أستطيع تصديق عدم معرفته بحبي له.

يلهو بي؟ لعبة أعجبته، يرغب بإكمالها، سأتظاهر أيضًا أنه لا يعرف السبب، سأضع حدًا للأمر.

كتبت رسالة له، كم تمنيت أن تكون منه، ولكن .....

جاء فيها: أريد ترك العمل لأني أحبك، لم أعد أقوى على مشاهدتك كل يوم، سماع صوتك، شم عطرك وأنت لغيري.

أعطيته الرسالة، وجلست بجوار الهاتف أنتظر أية كلمة منه، أريد أن أعرف، لم لست أنا، طالما أن ارتباطه لم يعتمد على الحب كما أخبرني.

المدير: أنت فتاة لطيفة، وجميلة، يتمناك الكثيرون.

أنا: إلا أنت؟

- أنت طموحة.

- هنا المشكلة؟

- نعم، لا أستطيع أن تصبح زوجتي في يوم من الأيام أفضل مني، أنا قمة هرم التخلّف، أنت صح، أرجوكِ لا تتركِ المكان حتى تجدي عملًا آخر.

غادرت مكتبه، ومشاعري كمصب لعدة أنهار، تيارات تضرب بعضها البعض، في داخلي هدوء وصخب، لم أعد أميز شعورًا واحدًا صافيًا، خليط من عدة ألوان، لا شيء واضح.

فعلت كما طلب، بدأت البحث عن عمل، كان علي نزعه من داخلي، كان يمتلكني تمامًا، عقلي، قلبي، روحي، كان متغلغلًا في كل ركن مني، نزعه يترك آلامًا رهيبة، وبقاؤه لا يقل ألمًا، كل هذا يجب أن يحدث وأنا أراه، أسمع صوته، أشم عطره، الذي أصبحت أشمه كثيرًا أينما ذهبت، هل لأن معظم الرجال يتعطرون به؟! أم لأن أنفي يحتفظ به؟

27 - لحم مفروم

أساء والداي عندما أرغماني على الزواج من أحد أقربائي، وأحسنا عندما أرسلاني بعيدًا عنهما حيث يقيم.

لم أنجب، أفضل شيء حدث لي منذ تزوجته، لم نكن سعداء، لم نقترب من الأمر أصلًا، نفور بيننا في كل شيء، خطئي أم خطؤه؟ لم أكترث بالمتسبّب.

بعد تفكير عميق، وسنتين من الزواج، قررت البحث لنفسي عن زوج.

ترافق مع هذا القرار إهمالٌ مني لكل واجباتي الزوجية، والغير زوجية، مظهري هو الشيء الوحيد الذي حافظت على الاهتمام به، بل أصبحت أكثر حرصًا عليه من السابق.

المجتمع المغلق الذي أنا فيه، ذو الأسوار الموضوعة بين الرجال والنساء بالحديد والنار، لم يمنعني من تنفيذ قراري، بل اعتبرتها تحديًا، سأقفزها جميعًا، كل المطلوب هو رجل به الصفات التي أريد، ليس هذا فحسب، أريد قصة حب.

أصبحت أذنًا صاغية لكلام زوجي عن أصدقائه، ومن يعمل معه، من يقابله، من حتى يتشاجر معه، من يكرهه، من يحبه.

عندما كان يأتي له ضيوف، أجلس خلف الباب، أسترق السمع، أتعرف على شخصية هذا وذاك، أراقبهم وقت الدخول والخروج؛ لأتفحص أجسامهم وملامحهم.

تتباهى النساء حولي بلونهن الفاتح، سيعرفن عما قريب، ما تستطيع أن تحيكه سمراء.

أريده ممشوقًا، أبيض البشرة، ذا شخصية قوية، خفيف الظل، هادئًا، ميسور الحال، يكبرني بما لا يزيد عن عشر سنوات.

عندما أعثر عليه، سأعرف كيف أسقطه أرضًا، بضربات من حديثي اللبق بصوتي الناعم، وبشعري الطويل، وجسدي الرشيق.

إسقاطه ليست مهمة صعبة، المطلوب فقط اختيار الهدف، لا داعي لرمي شباك عليه، سيدخلها بإرادته باسمًا بل راجيًا.

اخترت عدة أشخاص، درست حالة كل منهم على حدة، عيوبه، حسناته، نقاط ضعفه وقوته، وضعه المادي والصحي، كل شيء.

كلهم متزوجون، لن يتزوج عازب من مطلقة، لو أراد هو، عائلته سترفض، الأمر مستحيل، لن أخوض صراعات من أجل رجل، هو من عليه أن يفعل، الرجال لدينا تزوجهم أمهاتهم.

أدخلتهم في تصفيات، ومن وصل إلى النهائي، بدأت التخطيط لجذبه.

جاء ذات يوم يسأل عن زوجي، فقلت له: سيأتي ليلًا.

هو: أعود له إذن.

– بعد أن تشرب الشاي، لست غريبًا، أنت من العائلة، كما أني أريد أن أطلب منك شيئًا بسيطًا.

– حسنًا.

– لقد عرفت من زوجتك أنك تحضر لها لحمًا مفرومًا لذيذًا من المدينة، هلا أحضرت لي عبوة أجربها؟

– لك هذا.

غادر المكان، ردة فعله على نظراتي، وابتساماتي، فتحتا الباب لي فدخلت، وبحجة اللحم المفروم أصبح يتردد على المنزل، يختار أوقات غياب زوجي، لقد وقع في شباكي.

أذهب إلى منزله إذا تأخر علي، لديه ستة أطفال، سيء التعامل مع زوجته التي تفوقني جمالًا، يضربها أحيانًا، لم أخف منه بل زاد تمسكي به، عصبيتها نقطة ضعفها، لا تجد له وقتًا، وتَرَيْن جيدين للعزف عليهما.

عدة أشهر مرت على تخزين اللحم المفروم وتوزيعه، أخذت منه وعدًا بالزواج مني في حالة طلاقي، الكرة في ملعبي، بدأت الضغط على زوجي، مع حرصٍ على عدم انفجاره.

علي مواجهته، هل رائحة طبختي فاحت؟ لا أدري، ولو حدث هذا، هل وصلت إلى أنفه؟ الخبر يأتي عند صاحبه ويتوقّف.

علي التعامل بحكمة مع ذكورته، التي ستتضخم إن طلبت الطلاق.

طلبت السفر إلى عائلتي، هناك فجرت قنبلتي بحذر، لم يُصب أحد.

أنا: أنت لا تحبني لا تخدع نفسك، لهذا لم تستطع جعلي أحبك، طباعنا مختلفة، أعجز عن إسعادك، تستحق من تفعل، أنا تعبت، أنت أيضًا مهما أنكرت، الانفصال أفضل لكلينا، لا أطفال بيننا نُتعِس أنفسنا من أجلهم، مثل معظم من حولنا.

بقيت أقدّم مصلحته على مصلحتي، ذكورته على أنوثتي، أرضي كرامته، حتى حدث الطلاق.

بعد انتهاء العدة بيوم واحد، وصل الرجل الآخر، شد وجذب مع والدي، تصميم على الزواج منه مهما كلف الأمر: لن أسمح بأن تزوجاني كما تريدان مرة أخرى، شببت على الطوق.

لا يعرفان يومًا ولن يعرفا، ماذا فعلت للحصول على هذا الآخر.

أخيرًا تم الـزواج، زوجته تلاحقه، كشفت الأمر، ليست غبية، أشعلت نيرانًا حوله أحرقتها هي.

كان يحلف لها أنه وحده، وأنه لم يتزوج، وأن السفر من أجل العمل، هذا وأنا جالسة إلى جواره أداعب شعره، وأطعمه حبات العنب.

28 - ابتزاز

من تضربكِ في الشارع أو تشتمكِ أخبريني، سأذهب إلى أمها وأتحدث معها لتعاقب ابنتها، ومن تفعل ذلك في المدرسة أخبري المعلمة فتعاقبها، لا تضربي ولا تشتمي أحدًا.

حسنًا، هذه الكلمة كانت دائمًا ردّي على أمي، عندما تلقي على مسامعي هذه التعليمات.

السمع والطاعة كانتا سمتي، ملتزمة بكل سلوك حسن؛ مجتهدة، مطيعة، متفوقة، منتبهة لكل كلمة تصدر عن أمي وعن المعلمة، فتاة مثالية.

كسولة بليدة، تريد نقل حل الواجبات مني، وهذا ما ترفضه أمي، هذه هي جارتي في المقعد، في الصف الرابع الابتدائي.

عرضتُ عليها أكثر من مرة مساعدتها في حلها، شرحُ ما يصعب عليها، شرح الدرس كاملًا، وضع خطوط لها تحت الإجابات، رفضت كل الاقتراحات، تريد طبقًا جاهزًا للأكل.

الإلحاح كان سياستها تجاهي، تضايقني طوال الوقت، تعرف أخلاقي، فتحرص على استفزازي؛ لأنهرها فتصرخ بي المعلمة، وتهتز صورتي أمامها.

مرارًا طلبت منها الابتعاد عني، التوقف عن الحديث معي أثناء الدرس، ولكن لا فائدة، ملتصقة بي مثل العلقة، أبخل عليها بنقطة دم واحدة، تزيد إصرارًا.

كثرة الطرق تفك اللحام، غضبتُ يومًا فنعتها بالحمارة.

لم أنتبه للكلمة إلا بعد أن خرجت مني، نظرة خبث ارتسمت على وجهها: سأخبر المعلمة.

رجوتها ألا تفعل.

- أريد حل واجب الرياضيات.

هكذا أصبحت رازحة تحت تهديدها كل يوم، لا أتجرأ على إغضابها، أو رفض طلب لها، أرجو رضاءها، إنها تذلني.

كابوس أصبح الذهاب إلى المدرسة، انكسار، مرارٌ، ثقل على صدري، أصبحت غرفة الفصل أصغر، أقل ضوءًا، أعلى حرارة، الحصص الدراسية أطول من السابق، لا أعرف ماذا أفعل.

اللوم، هو كل ما سأتلقاه من أمي لو أخبرتها، لا صدر حنون من المعلمات، وحتى لو كان هناك منهن من هي بهذه الصفة، لم أكن لأهز صورتي المثالية أمامها، والتي كانت أهم لدي من حياتي.

هدَّأْتُ من نفسي، هذا الفصل الدراسي، سينتهي لا محالة، بعدها سأكسر هذا الغل الذي في عنقي، علي الصبر، فقط الصبر، لم أتجرأ بطرح ذلك السؤال على نفسي: ماذا لو استمر الأمر لفصل آخر؟

كلمات ومشاعر سمعت عنها، ولكن لأول أتذوقها، كرة حديدية أجرها طوال الوقت، لا تفارقني حتى عند النوم.

انتهى الفصل الدراسي أخيرًا، لم أحصل على جائزة الفتاة المثالية، لم أخبر أحدًا بقصتي مع البليدة، قررت ألا يتكرر هذا مهما حدث.

29 - دماء

أحاول حفظ مباني الجامعة، أربط الأماكن ببعضها، أرسم عدة خرائط أحتفظ بها في جيوبي، وبين كتبي.

اللافتات والأسهم لم تفدني من الضياع فيها مرات ومرات، مما أسفر عن التأخّر عن المحاضرات، هل هي غير كافية؟ هل المشكلة مني؟ لا أدري.

هذه الساحة تؤدي إلى كلية الآداب والصيدلة، بدأت أحفظ مكانها، وكل ما أستطيع من تفاصيلها، ترتيب كراسيها، شكل أشجارها، مساحتها، موقع الشمس منها لكل وقت، أصل إليها بسرعة من أكثر من اتجاه، فأصل إلى كُلِّيتي بسرعة.

دماء تغطي أرض ساحتي، صدمة، تجمُّع للطلاب، تساؤلات، هل ذبح أحدٌ خروفًا هنا تحديًا للإدارة أو بناءً على نذر؟ هل ذبح أحدهم أخته لشكه في شرفها، ورأى أنها فرصة ليعظ باقي الطالبات؟ هل تطور شجار بين اثنين فقُتِل أحدهما أو نزف بحدة؟

السبب الأخير وجدته أقرب الأسباب؛ ألم يحدث ضرب بالسكاكين في شجار على كرسي في حافلة، شجار آخر وقع بسبب فتاة، يحدث

الشجار يأتي الأصدقاء وأبناء العائلة، وأحيانًا إمدادات من الخارج للمشاركة، لا يهم من المخطئ ومن المُحِق، النصر هو الهدف.

يومان على وجود الدماء، عمال النظافة يرفضون مسحها، خائفون، طلاب متغيبون عن الدراسة بسبب الصدمة، قلّ عدد المارين من هذه الساحة، يصمت معظمهم عندما يفعلون.

عندما أدخلها أشيح بنظر عن الدماء، فلم أعرف متى تم مسحها.

قررت مجموعة من الطلاب الذهاب إلى العزاء، رفضت مرافقتهم؛ لن أعزي والدين انتحر ابنهما.

30 - 66 كيلو غرام

عادت أمي من زيارة زوجة عمي إلى المنزل غاضبة، انفجرت في وجهي: لقد وجدت له أمه عروسًا.

أنا: ما المشكلة في الأمر؟! لم أُعجَب به يومًا، وأنتِ تعرفين ذلك.

الجميع كان يتوقع أن أكون أنا العروس، هذا هو الغالب في مجتمعنا، توقعت أن هذا هو سبب الغضب، ولكن جاء سؤالها: هل تعرفين لماذا لم تتقدم لطلبك له؟

- يحب الأخرى، ربما.

- لم يرها إلا عند الخطبة، لم تفعل لأنك سمينة، وهو يرغب في فتاة نحيفة.

هدأت من روع أمي، مع أن العكس هو ما كان يجب أن يحدث.

ابن عمي لم يكن أول من أشار إلى الأمر، منذ أن كنت في المرحلة الابتدائية، وأنا أُنعَت من قبل بعض زميلاتي بهذه الصفة.

الأطفال ملائكة، من قالها لم يأتِ إلى مدرستي يومًا، فهنا حلت الشياطين، لطالما تمنيت أن أُبرحهُن ضربًا، لم يكن يمنعني سوى العقاب الذي سأتعرض له.

أجبرنني منذ الثالثة عشر من عمري على عمل حمية، على إثر وصفي من فتاة تشبه المسمار بالوصف الملعون، ثم ما لبثت أن انهرت أمام الجوع، آه منه، النوم معه، ممارسة حياتي العادية معه، الاستيقاظ قبل الوقت المحدد بسببه.

بلغت العشرين من العمر، وأنا من حمية إلى أخرى، من فقدان وزن إلى اكتسابه.

ذلك اليوم صاحب الزيارة المشؤومة، قررت فيه أن أدخل حمية حقيقية، لا تراجع فيها، مائة خط أحمر تحت (لا تراجع فيها).

عارضة أزياء هي من ستراها زوجة عمي في عرس ابنها، لن تعرفني حتى، قرار ليلي قوي تملؤه عزيمة لن تلين، هذه المرة ستكون الضربة المُنحِّفة.

قللت من الطعام، خاصة النشويات، المتهم الأول في قفص زيادة الوزن، ثم الدهون، زيادة في الفاكهة والخضراوات، رياضة لساعات.

اثنان من (الكيلوات) حصيلة الأسبوع الأول، جعلا حماسي يصل عنان السماء، مع التقدم في الأسابيع، بدأت تقل الخسارة، فأقلل الطعام، كنت أرغب في الوصول إلى 50 كيلو غرامًا، الوزن المناسب لطولي، كما يقول علماء التغذية.

مرت الأشهر بطيئة جدًا، حدثت فيها انهيارات أمام الأرز والحلوى وعقدتي العظمى، الخبز، بعدها شعور قاسٍ بالذنب، واتهام لنفسي بالضعف، كرهت جسدي السمين.

55 كيلو غرام، هو وزني عندما ذهبت إلى حفل الزفاف، عندما رأيت العروس تذكرت مسمار المرحلة الابتدائية، لقد كانت مسمارًا آخر، زادني إصرارًا لأكمل ما بدأت.

مقاومة نزول الوزن، نقطة وصلت إليها، أمر عرفته من القراءة عن الأمر، بالإضافة إلى البرامج.

الامتناع عن الطعام تقريبًا، هو الوضع الذي وصلت إليه، اكتفيت بحبات من الفاكهة والخضار، فقط ما يسمح لعودي بأن يقوم، دوار، عدم تركيز، إرهاق عام، عصبية، اعتراض أمي، كانت مطارق تطالبني بالتوقف، وليذهب رقم 50 إلى الجحيم، بل ولتذهب الرشاقة كلها، وأكثر من يجب أن يذهب إلى الجحيم زوجة عمي، وكل مسمار على وجه الأرض.

أخيرا رأيت رقم 50 على لوحة الميزان، زيارة واجبة للمتسببة فيه؛ أريها القوام الممشوق، نظرات المفاجأة أراحتني، شماتة أيضًا شعرت بها عندما رأيت المسمار قد زاد وزنه، مع أن الحمل هو السبب.

لم أستطع المحافظة كثيرًا على القمة التي وصلت إليها، فبمجرد أن عدت لتناول الطعام بشكل شبه عادي، بدأ الوزن بالصعود مرة أخرى.

غياب الحافز، الألم المتراكم من الجوع في سنوات طويلة ومبكرة، جعلتني غير مبالية بما يحدث.

79 كيلو، رقم ومنظر جعل عائلتي بكاملها تعرب عن قلقها ورغبتها بوضع حد للأمر عن طريق مختص في التغذية، الرقم كان مزعجًا جدًا لي، لولا هذا لما استطاع أحد إقناعي باللجوء لمساعدة مختص.

كان رأي الجميع ومن بينهم أنا، أن الحصول على الرشاقة مقابل المال، سيجعلني أكثر حرصًا هذه المرة على المحافظة على القمة.

شهور منظمة، أوصلتني مجددا لوزن 55 كيلو، محاولات الطبيب الوصول إلى 50، باءت بالفشل.

إن طبيعة جسمك لا تستطيع الوصول إلى ما وصلت إليه منذ سنوات، ما حدث حينها، ليس بالضرورة أن يحدث مرة أخرى، الجسم يتغير، العمر له تأثيره.

هذا ما قاله الطبيب لي، لم يكن الرقم سيئًا أبدًا، بل حلمًا، حافظت عليه لأشهر، بعض التراخي ليس إلا، قفز بي إلى 62 كيلو غرامًا.

الألم يعتصرني، ليس بسبب هذه الزيادة، الكثير ممن حولي يرون أن جسدي جميل بهذا الرقم؛ بل لأنه يقع على بعد أربعة كيلو غرامات فقط من الوزن المسجّل عند الزيارة إياها.

31 - كتالوج

زميلة عملٍ قديم، اتصلت بي، وسألتني: هل تزوجت؟

إجابتي بالنفي، جعلتها تحدثني عن شاب في السادسة والثلاثين من العمر، عازب، عمل مستقر، شكل مقبول، يبحث عن زوجة.

قالت: ستعرفين عنه كل ما تريدين، عندما يقابل والداك، ولكن هناك طلب له، إذا وافقتِ عليه سيبدأ الأمر، هذا الطلب لن يتنازل عنه أبدًا.

أنا: ما هو؟

- يريد رؤيتك أولًا، إذا تم قبول مبدئي، سيتقدم بشكل رسمي.

لم أحتج لطويل وقت للتفكير، حتى أوافق.

كانت الرؤية الأولى عند باب المنزل، أحضر قالبًا من الكيك، اخترعت قصة حتى أبرر لعائلتي وجوده؛ فأنا لا أطلب شيئًا من الخارج، كما أني لا أحب هذا النوع بالذات.

بعد مغادرته اتصل بي، وأبدى إعجابه قائلًا: صورتك في الواقع أجمل بكثير مما كانت في خيالي.

- كيف وصفتني زميلتي لك؟

– لم تصفك، فقط أخبرتني أنك تجاوزت الثلاثين، ولطالما كانت الفتاة بعدها، تفقد نضرة الشباب في خيالي.

جملة أشعلت في رأسي (لمبة) تنبيه، ولكني عدت فعذرته؛ بالنظر إلى الخلفية التي ينظر بها هذا المجتمع إلى المرأة.

ها هو يقابل عائلتي، موافقة مبدئية من الجميع، يجب أن تكون هناك فرصة لتوطيد المعرفة.

أمي لم تحبه، مزاجها صعب جدًا، لذلك لم يكن ذا وزن بالنسبة إلي، علي سبر أغواره بعيدًا عن ملاحظات حماته.

أبي: لن يكون هناك أي إجراء جدي قبل أن تُنهي امتحاناتها، هذه هي آخر سنة جامعية لها.

الخاطب: لا بأس، سأكون مشجعًا لها.

هذا المشجع لم يكن يسأل عن دراستي إلا لماما في كل اتصال له، يغضب عندما أعتذر عن الرد عليه بسبب انشغالي في الحفظ، فعل أيضًا عندما اعتذرت عن الذهاب معه إلى مقر الامتحانات، قلت له: ماذا لو أوقفنا شرطي، وسأل عن قرابتك لي؟

هو: أمر نادر الحدوث.

– هو ممكن إذن؟

– أنت متشائمة.

– بل أعرف قوانين هذه البلاد، وأتجنّب شرها، لماذا أضع نفسي في موقف لا حاجة لي به؟! كما أن عائلتي لن توافق.

– لا يجب أن يعرفوا، الحقيقة أنك لا تريدين رؤيتي، والحديث معي.

– نستطيع فعل هذا في منزل عائلتي.

– تصرين على أن تكون زيارتي ليلة الجمعة فقط، هذا غير كافٍ.

– بسبب الامتحانات.

– هذا يعني أنك لا تشتاقين لي طوال الأسبوع.

– التوقيت يتحكّم بي.

لم يكن معظم ما نقوله في كل اتصال يخرج عن هذه النقاط وما شابهها، لم أشغل نفسي بتحليل أية كلمة أو موقف، عقلي لن يحتمل، لمبة إثر أخرى كانت تصطف بجوار بعضها البعض.

انغماس كامل في الدراسة، قرر أنه إهمال له، أسبوعان فقط، ما هي صعوبة فهم هذا من قِبَلِه؟!

بعد انتهاء ضجة الامتحانات، بدأت أسمع الأصوات الأخرى، أمي أبي، إخوتي، المسمى خطيبي، الأهم بدأت أتأمل (اللمبات).

أدركت أنه لم يسأل مرة واحدة عن أدائي في أي امتحان، لم يسأل عن اهتماماتي، ما أحب، ما أكره، ماذا بعد التخرج، ما سبب تأخري في الالتحاق بالجامعة.

إنه لم يتحدث حتى الآن في تفاصيل الزواج، حتى يعرف هل تناسب ظروفه أم لا، عائلتي تنتظر مبادرته.

قبل ظهور نجاحي من عدمه، أخبرت عائلتي أنه أرسل لي رسالة يعتذر فيها عن إكمال الأمر؛ لأسباب شخصية لن يستطيع البوح بها.

هزة من رأس أمي وابتسامةٌ منتصرة، توقعت هذا منها.

لم أطلع أحدًا على الرسالة التي بعث بها إلي يقول فيها: بعد تفكير، رأيت أني متخوف من التعامل مع المرأة المكتنزة.

(يأتي معها كتالوج دائمًا)، هكذا أجبته.

(بياض الثلج – Snow white32)

صلبة لا تقبل النقاش أو النقد، معارضتها مرهقة، هذه هي أمي، تطالبني باستقامة مثل مساطري، التي دائمًا ما كسرتها وهي ما زالت جديدة، تطالبني أن أمشي مثل العسكري، مع أني لا أعرف كيفية هذه المشية.

أمي: هذا هو الصح، وهذا ما يجذب أفضل الأزواج، كنت هكذا عندما كنت في مثل عمرك.

(فعلت ذلك، تحدثت مع الرجال هكذا، مشيت بهذه الطريقة، ارتديت الملابس بهذا النظام) جُمل أمي التي لم تكن تمل منها أبدًا.

المشكلة لم تكن هنا، كانت في أن أبي لم يكن من أفضل الأزواج ولا الرجال، ولا حتى من أوسطهم، مصنّف من فئة الأسوأ، أين صحة كلامك يا أمي إذن؟! كيف لي أن أصدّق فاعلية نصائحك؟!

خوفي شديد، من جذب رجل مثل أبي، والتحول لامرأة مثل أمي.

التحرّي عن حقيقتها، هو ما قررته؛ ضقت ذرعًا بتعليماتها، التي ألقى توبيخًا لمخالفة أي منها، ومن محاضرات مكررة عنوانها: كنت أفعل، وكنت أقول.

ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟ ولا خالة لي، ولم أكن بالطبع لأسأل خالي، أبي ليس من أقربائها، لا يتقاطعان ولا حتى في الجد الرابع عشر قبل الميلاد، فتفيدني عماتي، لذلك أقنعتها بزيارة قريتها البعيدة جدًا، والتي مضى على آخر زيارة لها إليها خمسة عشر عامًا.

لمعةُ عينيها، إشارة خضراء بالمضي قدمًا، حزمت ما يكفينا من الأمتعة، أبي لن يرافقنا، لتكن رحلة نسائية إذن، لا تعرف أمي هدفها الرئيسي.

الترحيب والحفاوة عنوانا استقبالنا، وجدت ضالتي المنشودة، قريبات أمي وصديقاتها، كلهن في مساحة أتجول فيها مشيًا بكل سهولة، منذ أول زيارة أدركت أنه لا داعي للتجول ولا للتحريات؛ فقد أتت بنفسها إلي، كل زائرة تحكي عن مغامراتها مع أمي، وما علي إلا أن أسمع، وأحفظ.

في الأيام القادمة، سترى أمي مني ما لم تكن تتوقع.

صديقة تتحدث عن تسلق أمي النخيل وأشجار التوت؛ إذ لم تكن تقبل من الثمار إلا ما تختاره بنفسها.

ثانية تتحدث عن مواسم جني المحاصيل، التي كانت أمي تخوض شِجارًا وأكثر مع والديها الميسورين حتى تشارك بالعمل فيها؛ رغبة في مشاهدة قرى أخرى كانت تدفعها بقوة، وتحكي عن إشراف أمي على تلك العملية في أرض والدها، تأمر هذا وتنهى ذاك.

المفاجأة بل المفاجآت ألجمتني معظم الوقت، مما دفع أمي إلى سؤالي باستغراب:

منذ متى هذا الهدوء والصمت؟!

زاد الطين بلّة، تلك الحكاية، التي روتها الثالثة وهي تغمز، وتخفض صوتها وترفعه، وتميل ضاحكة، وتسأل، وحمرة الخجل تعلو وجه أمي.

حكاية عن شاب من قرية مجاورة، كان معجبًا بها، وكانت تتدلل كثيرًا عليه، لاحقها ذات مرة على حصانه، فركضت منه، لتنزلق في الطين، فيبتعد الشاب خشية رؤيته من أحد، تقدّم لخطبتها، ولكن عادات قذرة رفضته، تألمت أمي، كم تمنيتُ رؤيته، ورؤية الطين.

رابعة، أعطتني كلمة السر لتغيير الحوار والحال مع أمي، للحصول على امتيازات منها، لتقريب المسافة بيننا، فنصبح أقرب إلى صديقتين، فَعَلت هذا عندما ذكَّرت أمي بأناقتها في تلك الفترة، وحرصها على إظهار بياضها وجسدها البض، وكل ما يغري الرجل من المرأة.

يبدو أنها كانت (سنو وايت) هذه القرية في غابر الزمان.

33 - معركة

لم يستطع الطعام في فم الجالسة على الطاولة المجاورة لي في هذا المطعم، لم يستطع جعلها تصمت، عندما سمعت الرجل المجاور لها يتحدث بعنف وكره عن النساء: النساء تستحق الحرق، الدفن في حفرة أحياء، كائنات مقرفة.

الجالس معه يخفف من حدته: لسن جميعًا، اهدأ وتناول طعامك.

بإصرار: بل جميعهن.

المجاورة لي: وماذا يستحق الرجال برأيك؟

شفاهها وخدودها الكبيرة جدًا، وصدرها أيضًا، جعل الغاضب يتوقع أن تكون غير طبيعية، فقال لها مستهزئًا، وقد ارتسمت على وجهه كل علامات احتقارها: اشكرن من جعلكن نساء بالسيلكون.

- واشكروا أنتم من جعلكم رجالًا بالفياجرا.

34 - عيون المها

متوسطة الجمال، لها عينا غزال، يصعب على معظم الرجال مقاومتهما.

كانت تعمل موظفة استقبال في ذلك المستوصف، عندما رأته لأول مرة، التفاته إليها أمر ليس بالجديد عليها؛ معظم موظفي المكان، ومرضاه، كانوا يفعلون.

ما كان جديدًا، هو التفات انتباه الغزال إليه، كان يتمتع بمقاييس نجوم الأفلام السينمائية من الصف الأول، وكان أيضًا ذا أسلوب راقٍ في التعامل.

تبادلا نظرات الإعجاب، أثناء تنفيذها لإجـراءات دخوله إلى الطبيب، وبعد أن أنهى الكشف، وكان قد لفت انتباه طاقم الاستقبال والتمريض، غادر المكان بنظرة اهتمام بها، وبابتسامة جميلة.

بعد أسبوع، جاء موعد مراجعته، فاتصلت به؛ لتذكّره بالأمر، كما تنص أنظمة المكان، أحست بسعادة لم تجد لها سببًا، عندما أكد لها حضوره.

وعندما جاء، لم تنس الغزال أبدًا أن تتأمل أصابعه العشرة، شعرت بارتياح كبير؛ فهو لا يرتدي خاتمًا في أي منها.

زميلتها في العمل، لم تحضر اليوم، وجدت أنها فرصة ربما لن تتكرر؛ لتتجاذب معه أطراف الحديث، قالت له: كيف هي صحتك اليوم؟

هو: بخير.

بدون مقدمات، سألها سؤالًا لم تتوقعه: هل أنت متزوجة، أو مخطوبة؟

علت حمرة الخجل وجهها، وابتسمت، ثم أجابت برِقة: لا.

وجدت أنها فرصة ثمينة؛ لتسأله نفس السؤال: وأنت؟

- أنا متزوج.

أحست بخيبة أمل، عند ذلك، ولكن هذا الإحساس سرعان ما زال، عندما قال لها: ولكني لست سعيدًا في زواجي، وأبحث عن زوجة أخرى، أحيا معها السعادة التي أتمناها.

بعد يومين، اتصل بها، وصارحها بإعجابه بجمالها، وبأخلاقها، وبالتزامها في عملها، وبحسن تعاملها مع المرضى، ثم قال لها: وأكثر شيء سحرني هو عيناك، إنها تذكرني بأغنية ماجدة الرومي: عيناك ليالٍ صيفية، هل لي بالحصول على رقمك الشخصي؟

- لا رغبة لي بذلك.

أصبح يتردد كثيرًا على المكان، لأتفه الأسباب، يتصل بها كل يوم، يترك لها ملاحظات على أوراق صغيرة، داخل ملفه الطبي، كما بدأ

بإرسال الورود لها، وكذلك بعض الوجبات، والمشروبات، كل شيء يرسله كان موقعًا باسمه، وبرقم هاتفه، وبعبارة غزل جميلة، أو ببيت شعر، أو بكلمات أغنية ساحرة.

في كل اتصال، كان يرجوها، أن تعطيه فرصة للحديث معها، وأخيرًا، استجابت له، مبررة لنفسها الأمر: لن يؤثر فيَّ أي شيء أسمعه، لم لا أتسلى قليلًا بالكلام معه؟ ولم لا أتمتع لفترة ببعض الهدايا؟ أنا لم أجبره على شيء.

بدآ يتحدثان، ويخرجان معًا، يقضيان أوقاتًا جميلة، لم يكن هناك شيء يزعجها، إلا ذلك الصوت الداخلي، الذي كان يزورها في بعض الأحيان، ويسألها: ما الذي تفعلينه؟ إلى ماذا ستصلين مع رجل متزوج؟! إن هذه خيانة لزوجته، كيف تقبلين أن تطعني امرأة مثلك في ظهرها، مهما كان السبب؟! ما أدراك أنه صادق؟

لم تكن تبالي بهذا الصوت كثيرًا، وعندما كان يضغط عليها، كانت تدافع عن نفسها: هو الخائن، وليس أنا، كما أنه تعيس مع زوجته، يبحث عن أخرى، إن حياتهما معا منتهية من الأساس، فلم لا أكون أنا؟!

الفكرة الأخيرة بدأت تكبر بداخلها تدريجيًا، تحت تأثير اهتمامه الشديد بها، فأطلقت العنان لمشاعرها، وها هي تسأله عن حياته مع زوجته، فيؤكد لها تعاسته، ويؤكد لها بأن المنزل بالنسبة له، ليس أكثر من فندق، سألته: لماذا تستمر معها إذن، وأنت على هذه الحال؟

– بسبب الأولاد، لدي ثلاثة أطفال.

– لمَ لمْ تنهي الأمر بعد أول طفل؟

– لم أتخيل، أن الأمور سوف تسوء بيننا إلى هذه الدرجة، بل على العكس، دائمًا ما توقعت تحسّن كل شيء مع الوقت ومع الأولاد، كما أن هناك سببا آخر.

– ما هو؟

– أعتقد أن النساء كلهن متشابهات، فما الفائدة التي ستعود علي من الطلاق؟ الأفضل إذن الصبر على ما أنا فيه، أنا أنتظر ظهور الحب الحقيقي في حياتي.

– هل ستطلّق زوجتك إذا وجدته؟

– بالتأكيد.

كلامه زرع الأمل في قلبها؛ ترجو أن تكون الحب الذي يبحث عنه؛ لأنها أصبحت تحبه جدًا، وكل أملها أن تراه سعيدًا، ومما زاد من مشاعرها، أنه يحتمل التعاسة من أجل أولاده، كانت ترى أن هذا التصرف نابع من الحنان الذي يملؤه، كم كانت تحب هذه الصفة في الرجل، أصبحت تراه رجلا عظيما ونبيلا أيضا.

بعد بضعة أشهر، بدأ يحدثها عن الزواج بشكل عام، وعما إذا كانت توافق على الزواج من مُطلِّق، ذو أطفال، وعمره يفوق عمرها بعشر سنوات، فأكدت له أنها ستفعل لو أحبته، وكانت مشاعره بالمثل.

لقد قررت أنها ستوافق على الارتباط به، وأن تفعل المستحيل لتقنع والديها، الذيْنِ كانت متأكدة، أنهما لن يوافقا على زواجها من شخص، لديه هذه الظروف.

كما أقسمت، أن تعامل أبناءه أفضل معاملة، في حالة قدومهم للعيش معها، أما في حالة بقائهم مع أمهم، فأقسمت أيضا، بأن لا تؤثر سلبًا على علاقة والدهم بهم.

تأكيد من قبله بأنها من كان يبحث عنها، يحبها من كل قلبه: الطلاق ليس أمرًا سهلًا؛ فزوجتي ابنة عمي، وطلاقنا سيؤثّر على العائلة بأكملها، علي في البداية، أخذ موافقة والدي على الأمر، فإذا فعلا، سأنهي العلاقة.

سألت: وإذا لم يوافقا؟

– اطمئني، سعادتي لديهما هي رقم واحد، أنا ابنهما الوحيد.

مرت الأيام، ليخبرها أن والديه، قد وافقا على زواجه من ثانية، أما الطلاق فهو مرفوض بسبب الأولاد: ما رأيك؟

صمتت، ثم قالت بألم وتردد: أمر لم أتوقعه، حتى لو وافقت أنا، والداي سيرفضان، وضع هكذا لن يقبلا به.

– علينا عمل المستحيل من أجل حبنا، سأتركك تفكرين لمدة أسبوع، دون أي ضغط مني.

مضت الأيام ثقيلة جدًا عليها، كادت تُجن من التفكير، ومن الحيرة، ومن بُعدِه عنها، وبعد أربعة أيام فقط، اتصلت به، وأخبرته بموافقتها، وسألته: متى ستأتي مع والديك، حتى أخبر عائلتي بكل ظروفك دفعة واحدة؟

– حسنا يا حبيبتي، هناك أمر آخر.

– ما هو؟

– لن تعرف زوجتي بالأمر، سيكون هذا الكتمان في البداية فقط، أريد وضعها أمام الأمر الواقع، لأتجنّب المشاكل التي قد تؤخر زواجنا.

– موافقة.

رفض من والديها، يقابله إصرار منها ورجاء ودموع وامتناع عن الأكل، مما جعلهما يوافقان على رؤيته والسماع منه؛ حتى يبنيان رأيهما على أُسس واضحة.

أبلغته بما وصلت إليه، فقال لها: هناك أمر أخير، سآتي وحدي، لن يعرف والداي، سأضعهما أيضًا أمام الأمر الواقع.

– من المستحيل، أن يوافق والداي على هذا.

– عليكِ إقناعهما، ألا تحبينني؟

– بلا، ولكن...

– السرية ستكون خاصة بي فقط.

لم تكن تجرؤ على التحدث مع والدها، فأخبرت أمها بطلبه، ثارت ورفضت، ولكن دموع الفتاة وإلحاحها، جعلها تعدها بمحاولة إقناعه بمجرد زيارته.

أخبرته بما حدث، وبأن والديها سيتوليان الأمر من الآن فصاعدًا، ينظر في الأرض، يتردد في الكلام يقول لها: أخشى من وصول الأمر إلى والدَيْ، إن مزاجهما صعب، لو عرفا فسأتحول إلى شخص فقير لا أستطيع إعالة عائلتي ولا حتى نفسي؛ أنا أعمل مع والِدِي، وأسكن في مبنى يمتلكه، لا أستطيع الكثير لو ابتعدت عنه.

نظرت إليه بصدمة وحيرة، بقيت صامتة، ليقول: لنجعل زواجنا لا يعرفه أحد سوانا، وليكن بعدها ما يكن، الحياة مغامرة، إن لم تعشها لم تعشها، هذه حياتنا نحن.

حبها له أقوى من كل شيء، وجدت نفسها تتحرك خلف قلبها، وضعت في حقيبة أوراقها الشخصية وبعض المال والأشياء الهامة، وتسللت من المنزل، ذهبت إلى المكان الذي اتفقا على اللقاء فيه، انتظرته، لم يأتِ، اتصلت به لم يجب، انتظرت نصف ساعة بعد موعدهما، ثم ساعة، ثم قلقت عليه، اتصلت به مجددًا، فجاءها الصوت المكروه ظلمًا: إن الهاتف المطلوب لا يمكن الاتصال به الآن.

35 - خلف الجدران

بالكاد أنهى العقيد كوب شاي في مقر عمله، ورده بلاغ بوجوب التوجّه إلى مزرعة، يُشتَبه بوجود إرهابيين فيها.

جمع العقيد رجاله، توجهوا إلى المكان المنشود، فور وصولهم، بدأ وابل من الرصاص باتجاههم من كل مكان.

استمر تبادل إطلاق الرصاص ما يقارب الساعة، أسفرت عن قتل بعض الإرهابيين والقبض على البعض، وعن إصابة ثلاثة من رجال الشرطة، وقتل واحد منهم، أما العقيد، فلقد ضربه أحدهم بسيارته، قبل أن يتم القبض عليه.

استيقظ العقيد في المستشفى، وبجانبه زوجته وولديه المراهقين، وابتسامة مشوبة بالخوف على وجوههم جميعًا.

اقتربت الزوجة منه، طمأنته على صحته، وأخبرته بأن كل ما في الأمر، كسرين في رجله.

أمَّن الطبيب على كلام الزوجة، وأخبره بأنه يحتاج إلى فترة من الراحة قبل أن يعود إلى العمل.

بعد أسبوع، عاد العقيد إلى منزله، ومع الأيام بدأ يشعر بالملل، أمر طبيعي؛ فلقد كان مشغولًا طوال الوقت في عمله، يشهد الجميع له بالتفاني فيه، وبأنه دائمًا يضعه على رأس أولوياته.

زملاؤه، وأصدقاؤه، يزورونه باستمرار، لم يكن هذا كافيًا بالنسبة له، ما زال يملك الكثير من الوقت؛ لذا بدأ يسلّي نفسه بشتى الطرق، القراءة تارة، والتلفاز، و(الإنترنت)، تارة أخرى.

ذات يوم، أثناء مشاهدته لفيلم على جهاز (اللاب توب) الخاص به، توقف فجأة عن العمل، فما كان من زوجته إلا أن أحضرت له جهاز ابنيهما ليكمل الفيلم الذي بدأه.

فور تشغيله للجهاز، بدأت بعض الرسائل تصل عن طريق (الفيس بوك)، دفعه الفضول أن يدخل صفحة صاحبها، هنا أصيب بصدمة، أنسته الحادثة، والألم، والملل أيضًا، فالرسائل تتحدث عن التكفير وعن التفجير والقنابل والأسلحة.

بدأ يدخل على صفحات أصدقاء أبنائه، الواحد تلو الآخر، وبعد ساعة من التصفح، أحس بأن الدنيا تدور به، وبأن رأسه يغلي، وأخذه خياله إلى البعيد، تخيل ابنيه أو أحدهما في مواجهة معه، أخذ يتخيل كل المداهمات، حوادث إطلاق النار التي خاضها، المداهمة الأخيرة، كم أحس بالرعب عندما بدأ يرى وجهي ولديه بين أولئك.

نادى زوجته، وأطلعها على ما اكتشف، لتكون صدمتها ليست أقل من صدمته.

عاد الولدان من المدرسة، فوجدا والديهما جالسين متجهمين، تبادل الأربعة نظرات الاستفهام، ثم نهض الأب، معتمدًا على عكازه، وضم ولديه إلى صدره.

36 - صديقة العمر

عملنا معًا في تلك المدرسة، عدم إنجابنا، التقارب الكبير بيننا في الأفكار والتوجهات، أمور مهدت لصداقة وطيدة، تزمتها الديني، لم يكن عائقًا.

أختي الثانية، هكذا كان المحيطون بنا يصفون علاقتنا، توسعت الصداقة لتدخل فيها العائلتان.

زيارات، رحلات، تبيت في منزلي عندما تتشاجر مع زوجها، ذلك الكسول الذي يعتمد عليها في كل شيء.

مسؤولية هذا لا تقع عليه وحده، هي ساهمت في ذلك؛ تطلب منه فعل الشيء، إذا لم ينفذ، تتصرف فورًا، قوية لا صبر لديها.

نشاطها يتناسب طرديًا مع كسله، زاد اعتماده عليها مع السنوات، عدم الإنجاب يؤلمها، هو السبب ولكن لن تتركه؛ ليست مسألة حب بقدر ما هو إحساس بالواجب والمسؤولية تجاهه، لم تكن الحياة في منزل والديها أفضل، كانت تحمل مسؤوليتهما أيضًا، مع وجود إخوة ذكور.

أنا: إلى متى ستبقين المرأة والرجل في هذا المنزل؟

صديقتي: لا أدري، أحمد الله على ساعات العمل الطويلة، التي تنسيني ما أنا فيه.

– السنوات تمر، القدرة على الإنجاب تتراجع.

مشكلة لا ناقة له فيها ولا جمل، وجد نفسه متهمًا في إشعالها، شرطة وسجن.

لم تألي صديقتي جهدًا حتى تخرج زوجها من هذه الورطة، أشهر من المعاناة، أجهدتها حتى الثمالة.

أخيرًا ظهرت براءته، تعود الحياة كما كانت، ولكن صديقتي متألمة؛ ما توقعته من معاملة أفضل، ومحاولات لإرضائها، وتغيّر، لم يحدث، لم تجد حتى اعترافًا بالجميل.

لا أستطيع إلا أن أكون ناصحة، هذا ما قلته لزوجي، عندما قال لي ضجرًا: كفي عن توجيهها، دعي التصرف ينبع من داخلها، اقبليها كما هي.

كلامه لم يوقفني عما أفعل، ولكنه خفف من حماه.

بعد أكثر من خمسة عشر عامًا من الزواج، قررت الطلاق، شجعتها ودافعت عنها بكل قوة، وأيدت سفرها للاستجمام، واستجماع شتات النفس، قَلَّت اتصالاتها، حيرني الأمر، توقعت رغبتها في الاختلاء بنفسها، قدَّرت ألمها والتغيّر القوي في حياتها.

أشهر بعد أشهر، الاتصالات قليلة ومختصرة، لا مقابلات ولا زيارات، أعذار تليها أعذار، وسفر يليه سفر.

لقد رزق بطفلة.

هذا ما قاله ابن عمي أثناء زيارته لي، كان يتحدث عن طليق هند.

أنا: أليس عقيمًا؟!

– بل هي من كانت تعاني من مشاكل في الإنجاب، تحمّلها مدة طويلة.

بعصبية ودفاعًا عنها، ربما بصدمة أيضًا: أهو من تحمّلها؟!

– لقد تزوج منذ أقل من عام، لقد أخبرني الكثير عن معاناته معها، لم أصدقه في البداية، تفهّم موقفي، أخبرني الكثير والكثير.

لم تخطر لي أية أفكار وأنا أستمع إليه، ضباب في رأسي، لا شيء مرئي فيه.

أسبوعان من هذه الزيارة، وطرقات عل الباب، هند هي الطارقة، هند بعد التعديل، هند الجديدة، لم أعرفها لأول وهلة.

لم يغب النقاب فقط، بل غطاء الشعر أيضًا، الغجري المجنون يتربع بكل أناقة على كتفيها، تغيّر لونه وصُفف بعناية، عباءة سوداء ثمينة وأنيقة، هي أقرب إلى الفستان منها إلى العباءة، غطت ملابس غالية الثمن، حشر فيها جسد فقد عدة (كيلوجرامات)، أثّرت إيجابًا على جغرافيته، رائحة عطرها زارت كل المبنى، الكعب العالي متعها بمشية لم أرها تفعلها أبدًا حتى في الحفلات، زينة كاملة بألوان فاقعة مع أن الوقت هو الظهيرة، قالت لي برقة في الصوت وانخفاض لم أعهدهما: اشتقت إليك.

أنا: أنا أيضًا، أرى لغيابك الطويل عذرًا.

ضحكت، ثم قالت: معك حق، ألستُ أفضل بكثير الآن؟

– مسألة نسبية، المهم أنك سعيدة، أولستِ كذلك؟

– نعم، لقد أعدت ترتيب أوراقي، لم أكن على قيد الحياة.

– وهل ثبت على هذا الترتيب؟

– نعم.

سَألتْ دون مقدمات: جارتك في الطابق الأول، هل تعرفينها؟

– علاقة سطحية، انتقلت إلى هنا منذ شهرين فقط، تعرفينني، لا أثق في أحد بسرعة.

– عليك تغيير هذه العادة، كفي عن التعقيد.

رشفة من الشاي: ابنتاها جميلتان جدًا، حصلتُ على رقمها.

هناك خطبٌ ما، إحساسي يصرخ، سألت: لماذا؟

– ستغرقان في المال والنعيم لو وافقتا على ما أريده.

– ما رأيك أن تتكلمي بوضوح أكبر؟

طلبتْ مني الهدوء، وأخبرتني أنها تعمل عند سيدة أعمال، تريد منها إحضار نساء من مختلف الأعمار؛ لحضور حفلات خاصة، فيها أثرياء يريدون علاقات جنسية متجددة باستمرار، وهناك نساء يرغبن بذلك أيضًا.

هند: ما رأيك؟

كان كلامها أصعب من أن أجد له ردًا، وعندما بدأتْ بسؤالي عن باقي الجارات، وباقي النساء اللواتي عرَّفْتُها عليهن خلال عمر صداقتنا، ضَحِكْتُ واستوقفتها وأكدت لها أن ما تتزين به عبارة عن (إكسسوار) وليس ألماسًا كما تدعي، وطلبت منها إيقاف هذه المزحة الثقيلة جدًا فورًا، وإلا غضبت منها بشدة.

وقفتْ وأقسمتْ أنها ليست مزحة، وأكدتْ لي أني ما زلت مرغوبة من فئة معينة، مع أني تجاوزت الخمسين عامًا، كل ما علي هو الثقة بإمكانياتي وجسدي أكثر مما أفعل، والكف عن التعقيد.

37 - حيرة تفاحة

مسلسلات من عدة دول عربية تُعرَض على القناة الأولى، كلها على اختلافها، تؤكد شيئًا واحدًا، تدعمه، تشجعه، تُحمله مسؤولية كبيرة عن سعادتك أو تعاستك، من قال أن العرب لا يتفقون في شيء؟!

الحب، ثم الحب، ثم الحب.

كنت أكثر إخوتي حرصًا على مشاهدة المسلسلات التي كان يحرص عليها والداي، خاصة أمي.

لم يكن حبًا لها في البداية، بل محاولة لإرضاء أمي، إذا ما شاركتها شيئًا تحبه، ومع أني كنت أحب النوم مبكرًا على عكس معظم الأطفال، كنت أسهر معها في حال تأخر المسلسل بسبب نشرة الأخبار، التي لم يكن لها وقت محدد عندها.

كانت أمي ترفض سهري، وكنت أعتبره إنجازًا، كان لسان حالي يقول: انظري ها أنذا أحب ما تحبين، وأسهر إذ تسهرين.

سريعًا بدأت أحب المسلسلات، ولا أترك منها شيئًا دون مشاهدة، سخيفة كانت أم جميلة، لا يهم البلد التي أتت منها؛ أحب القصص.

الحب ما زال يُذكر طوال الوقت، شماعة كل شيء، أصبح لدي إيمان بأن التعاسة في منزلنا، سببها انعدام الحب بين والدي.

هو كلمة السر إذن، لكل توأم لروحه، يجب أن يجده، طال الزمن أو قصر، وعليه ألا يستسلم إذا ما الزمن طال، مثل لطيف كنت أضعه بين عيني: نصف التفاحة، هو فقط ما يشبه نصف التفاحة.

لطالما تخيلت الأزواج التعساء، فواكه مختلفة ملتصقة بعضها ببعض، نصف تفاحة ونصف برتقالة، نصف موزة ونصف توتة، نصف عنبة ونصف بطيخة.

خاطرة مخيفة بدأت تتبلور عندي مع النضج، وهو أن تكون امرأة أخرى، أخذت نصفي الآخر.

على مشارف الأربعين أنتظر نصفي الآخر، لا أعرف إن كنت محقة أم لا، ولكن بدأت أميل إلى فكرة أخذ النصف المتوفر أمامي، ربما نتج عن هذا الأمر نوع جديد من الفاكهة.

38 - رسالة من تحت الماء

يتهامسون عن حبهما، هو أمر غير مرغوب، الإشاعات عن هذه العلاقة أكثر من الحقائق، أمها لا تبالي، تضرب بكلامهم عرض الحائط، هو ابن أختها، تعرف أخلاقه، لن تشعر ابنتها بالغربة في حياتها الجديدة، حب مبكر، لا ترى الأم فيه بأسًا، ولا تتمنى أكثر منه؛ لِمَ لا، وهو سيتوّج بالزواج فور إنهاء الشاب دراسته؟! سيسكن في منزل عائلته عامًا أو اثنين على الأكثر ثم منزل مستقل.

ساعة الصفر؛ أنهى الشاب دارسته، بدأ عملًا جيدًا، توجّه مع والديه إلى منزل الحبيبة لإتمام كل شيء، المحيطون ينتظرون تحديد موعد العرس، هناك من حضَّر ثياب حضور حفل الزفاف بالفعل، الأمر شبه منتهٍ.

مفاجأة من العيار الثقيل، لقد رفض والد الحبيبة الخاطب، واشتبك مع والد الشاب بالألفاظ، تطاولٌ وشتائم، شرخ عميق في العلاقة، ربما لن يتم إصلاحه أبدًا.

الخلاف بسبب إصرار والد الفتاة على أن تسكن في شقة منفصلة منذ البداية، ابنته موافقة على ظروف الشاب، أمها كذلك، أخبار عن أن الديكتاتور لا يحب والد الفتى منذ البدء، كما أن قصة الحب لم تكن

تروق له، زوجته تصرفت رغمًا عنه، وها هو ينهي الأمر، يثبت قوته عليها وعلى ابنته، احتراق قلبها أمر لا يعنيه.

سأزوجكَ أفضل منها في شهر.

هذا هو كلام والد الحبيب، موقف طبيعي، دكتاتور بدوره، ولكن مع درجة أقل إجرامًا من الأول.

الحب الحقيقي، الحب الكبير، الحب الأول أو الأخير، حب الأقرباء، كل أنواع الحب ضرب بها الحبيب عرض الحائط؛ دلل على هذا زيارة لعائلة أخرى، وخطبة لابنتها، بعد أسبوع من الاشتباك، إنما تبكي على الحب النساء.

كثيرون صدقوا تغير القلوب الذي تم، زيف وكذب ونفاق فاضح، نصيب، قضاء وقدر، شماعات الجرائم المعتادة، الجبروت المفلس يأتي أولًا وأخيرًا.

أُعلِنت خطبتها بعد شهر من الحادثة.

النيران تحيط بها، هكذا كانت صورتها في ذهني كلما فكرت فيها، هي مجبرة ولا شك، لن يقنعني أحد بعكس ذلك، حتى هي شخصيًا.

تزوج هو ثم هي، زوجته حامل، هي غير سعيدة، فالزوج مُجبر عليها من قبل والده، الذي يكره والد الحبيب، فخطبها لابنه تحديًا وكرهًا.

تناطح بين ثلاثة ثيران، والعجول بين أرجلها تنزف.

حصلت على طلاق، الحبيب يزور خالته طالبًا القرب مجددًا، رفضته، أرضت غرورها.

بعد انقضاء العدة، تم عقد قرانها على شاب هادئ مسالم، من أقرباء أمها، الثور ينطح مجددًا، يقرر المسالم الانسحاب، يبدو أن كل عجول زريبة الأم لم تكن تعجب الثور منذ البداية.

بعد عقد قران المسالم على أخرى، الدكتاتور زوَّجها من عجوز، أخذها بعيدًا، أخبار تأتي بشكل مشوّش، متضارب، يُكذِّب الخبر الثاني الأول، والثالث الثاني، ثم خبر أكيد، العجوز باع أثاث منزل الزوجية وسافر إلى بلاده، بينما كانت الزوجة في زيارة لعائلتها، طلاق ثالث.

أعرفها شخصيًا، العلاقة سطحية، كانت الكثيرات يحسدنها على علاقة الحب مع ابن خالتها، وأنا منهن، وها أنذا أشفق عليها حتى النخاع.

الزوج الرابع، كيف سيكون؟ الثور وحده من يقرر.

خبر أكيد، لن يتبعه ما يكذبه؛ آخر خبر سيأتي عنها، لقد غرقت في مسبح، أثناء نزهة عائلية في أيام العيد.

في عزائها، همست لي جدتي التي اقتربت من الثمانين، لقد انتحرت.

39 - خمسون عامًا

من فلسطين إلى الأردن، ثم إلى الكويت، حياة رغدة، هادئة، مجتمع منفتح، تدرجت فيه في التعليم، ثم ذهبت حيث حصلت على درجة الماجستير، ثم عدت للعمل، هنا حدثت كارثة العراق والكويت.

بعض من شعبي تعاون مع المحتل، اقتات على أخبارهم وتفاصيل تفاصيل ما فعلوا الإعلاميون.

أختي الكبرى قررت العودة إلى الضفة الغربية، دولة محتلة أيضًا، ولكنها بلدي، وأكثر أمانًا، هذا كان رأيها.

رفضتُ الذهاب معها، وكذلك فعلت أختي الصغرى وزوجها، نحن متأكدان أن الأمر سيُحل في عدة أشهر، القوى العظمى كفيلة بذلك.

لم أعرف هوية من اقتحم منزل أختي وقتلها هي وزوجها، بقي طفلها ذو الست سنوات على قيد الحياة، هل تركوه؟ هل اختبأ منهم؟ لم أسأله أبدًا، من شبه المؤكد أنه نفس السبب الذي جعله يتركني، مع أني كنت في الغرفة المجاورة، لم أعرف سبب القتل أيضًا، لم أبحث عنه.

استيقظت على نداء الطفل لي، ليمسك بيدي ويريني منظر والديه.

أخذت الأوراق الرسمية الخاصة بي وبعائلة أختي، الجاهزة منذ بدء الأزمة، أخذتها معي حيث دفنتُ القتيلين، وغادرت من هناك إلى الأردن.

بدأت رحلة علاج نفسي للطفل، أمر لا أحتاجه؛ فأنا بصحة نفسية جيدة تمامًا، كنت أصر على تواجدي معه أثناء الجلسات؛ جاءت أختي للاعتناء بنا.

بعد عام، ذهبنا إلى دولة خليجية أخرى، أختي غادرت مجددًا إلى الضفة، لا شيء أقنعها بالبقاء، اعتادت الحياة هناك، وعدت بالحضور بشكل دوري.

لن أتزوج من تعتني بالطفل، سيكون أمرًا غير عادل بالنسبة إليها، لقد تجاوزت المرحلة الصعبة، أأعبر البحر، وأغرق على الشاطئ؟! كما أني لم أقع في حب من تجبرني عليه.

هذا ما كنت أقوله لأختي عندما تحدثني عن الزواج، كنت مقتنعًا بموقفي، أما حاجتي لأنثى فهو أمر أتدبره جيدًا، لم أحرم نفسي منها يومًا، لدي ابن، لا أعتقد أن واحدًا أو أكثر من صلبي، سيستبدلون شيئًا من سواد العالم بالألوان.

أختي ليست لحوحة، تنوه أحيانًا، وتعطيني ومضات كعادتها، لطالما كانت عاقلة، متزنة، حكيمة، صفات لم تجلب لها زوجًا.

بلغتُ الخمسين في دولة مغلقة، تعتقد أختي أني أعاني في العثور على العاطفة الأنثوية، لا تعلم أن التشكيلة هنا أوسع، لم أخبرها.

ذات حضور لها: قررتُ أن أتزوج، ابحثي لي عن عروس.

أختي: لا أعرف أحدًا هنا.

– سأتدبّر الكثير من العائلات، عن طريق الأصدقاء وزملاء العمل.

ابن أختي: أنا أيضًا سأحضر لكِ قائمة طويلة.

بدأنا الرحلة، نذهب لمقابلة عائلة الفتاة، والفتاة نفسها في زيارة واحدة، أحترم الوقت كثيرًا.

ثلاثة أشهر، زيارتان في الأسبوع، لم أكن أجد صعوبة في العثور على عيب في العروس، أو في عائلتها، حتى ظهرت تلك الفتاة، عائلتها طيبة.

خمسة وثلاثون عامًا، فرق العمر كبير بيننا، ولكن مجرد رقم ثلاثين وميزاتي، ستجعلها تتغاضى عن خمس سنوات، الفرق أصبح عشرة، ليست كثيرة ولا قليلة.

جميلة جامعية مثقفة، فيها من شخصية أختي الكثير، فكان من الطبيعي أن ترتاح إليها، وأن تدخل إلى قلبها وتوافق عليها، وترجو أن تكون زوجتي.

أخبرتني أختي أن هذا ما همست به في أذن العروس ووالدتها؛ وكأنها تخشى أن يُظَن أنها هي السبب في حالة عدم إتمام الأمر.

– إذا لم توافق عليها، لن أرافقك إلى أية عائلة أخرى، أنت لا تريد الزواج.

– أنت تظلمينني.

هذه أخر جملة قلتها لها ونحن في المطار، أطبع قبلة على جبينها، بعد حضورها حفل زفاف ابن أختنا.

40 - كلوركس

دخل عليها غرفة نومها، لم تره من قبل، لا تعرف اسمه، سألته ببساطة: هل أنت زوجي؟

هو: نعم.

العادات والتقاليد في هذه القبيلة تبيح هذا، أمر تعرف جيدًا أنه حادث لا محالة، ولكن التوقيت كان مجهولًا بالنسبة إليها.

يجتمع الوالدان، يعقدان القران شفهيًا، اثنان من الشهود، انتهى الأمر، رأي العروس، بل معرفتها تحصيل حاصل.

قالت له: سأذهب إلى الحمام.

هو: لا تتأخري.

لم تكن العروس مطيعة، تأخرت، نادى عليها، طرق الباب لا رد، كسر الباب، وجدها ملقاة على الأرض، علبة منظف أرضيات، مفتوحة وملقاة إلى جانبها، نادى والديها.

إسعافات سريعة، ما زالت حية، أعضاؤها الحيوية ما زالت تعمل، مع أنها شربت كمية كبيرة.

جاء رجال الشرطة، لم يسأل أي منهم عن شيء، يعرفون هذه الحالات جيدًا.

قال أحدهم لوالدها: لو فَعَلَتْ هذا مرة أخرى، ستذهب إلى السجن.

41 - زواج جماعي

تجاوز الأربعين عامًا، وما زال عازبًا، عريس مناسب.

أنا: ما أسباب بقائه دون زواج حتى الآن، وهو قادر ماديًا عليه؟!

أمي: ما أسباب بقائكِ حتى سن الرابعة والثلاثين، دون زواج ومواصفاتك جيدة جدًا، إن لم تكن ممتازة؟

لم أجد ما أرد به على أمي، التي قالت بلهجة أهدأ مما سبق: لم يجد الفتاة المناسبة حتما، اسألي ما تشائين أمه وأختاه.

- ماذا عنه؟

- الزيارة الأولى للنساء فقط، هكذا اتفقنا.

فضّلتُ ترك المجال لأمي وللضيفات للحوار، واكتفيت بالإجابة عما يوجّه إلي من أسئلة.

مستواهم المادي يفوقنا كثيرًا، ليست إشارة حمراء.

أمه مغرورة ومسيطرة وكذلك ابنتاها، -اللتان لا تصغران العريس كثيرا- أمر لم أحتج لذكاء حتى ألاحظه، كل جملة، كل نظرة، طريقة الجلوس، كل حركة وسكنة، قطرت غرورًا وتعاليًا.

الأم تتحدث عن ابنها بطريقة جعلتني أتوقعه ملاكًا.

أنا: مغرور مثل أختيه سيكون ولا شك.

أمي: لا تحكمي عليه قبل أن تريه، هو من يهمك أليس كذلك؟

– إن يوم الجمعة القادم لناظرته لقريب.

رجوت أن يأتي لوحده ولكنه لم يفعل، الأربعة ترافقوا.

في البداية رجوت بصدق ألا يكون مغرورًا، وارد جدًا اختلاف الإخوة في المنزل الواحد، كما رجوت أن لا يكون ملاكًا، لا أحب الملائكة من البشر.

كان لا هذا ولا ذاك، ضعيف الشخصية لدرجة مؤلمة، أشفقت عليه، يتحدث ووجهه إلى الأرض، أعيد عليه السؤال أكثر من مرة حتى يجيب، هذا في حالة إصراري على سماع رأيه؛ فالأسئلة تتولى إجابتها مرافقاته.

حال أمي لا يختلف عني كثيرًا، ارتباك وحيرة، لا تعرف المسؤول عن الدفة في هذه السفينة، قطعًا ليس هو.

أحاديث جانبية وتفقُّدٌ للهاتف كل عدة دقائق من الثلاثة، بدأت أغتاظ، قلة الذوق أمر لا أحتمله أبدًا.

بلغ السيل الزُبى عندما بدأت الكبرى حوارًا على الهاتف وأنا أتحدث معها، دون أي استئذان مني أو اكتراث بي، إنها لا تراني، الثلاثة

كذلك، والخجول صاحب النظرة الأرضية لا يفعل ولا يقول شيئًا، لم يسألني أي سؤال.

انتهت الزيارة على اتفاقٍ على تفكير الطرفين أسبوعًا قبل إصدار الرأي، الموافقة المبدئية ستسمح بتوطيد العلاقات، ومقدار أكبر من التعارف ومن قلة الذوق.

سننتظر اتصالهم، علي التفكير، يجب أن يكون جوابي عند أمي قبل الجمعة القادمة.

رسالة مني للكبرى، اعتذرت فيها عن قبول هذا الزواج، أمر لم تعرفه عائلتي.

42 - نعم

هزة رأس بالإيجاب، وابتسامة، وعندما ينطق يقول: عندك حق، أوافقك الرأي، نعم.

هذا هو حال زميلي في عملي الجديد، عندما يتحدث مع مديرنا.

نظر إلي فأدرك أني أحتقر فيه موافقته الدائمة للمدير، فابتسم وقال لي:

خذي نصيحة ممن يصغرك سنًا، ليس من الحكمة أن تدخلي نقاشًا مع أحد يرى نفسه دائمًا على حق.

43 - صورة عائلية

كرم ضيافة، وحسن استقبال، لطف خاص معنا نحن الأطفال، هؤلاء هم جيراننا الأعزاء، الهدوء، الابتسامة، الصوت المنخفض، هذه هي صفات ربة المنزل.

أبقى إلى جوار أمي غالبًا، ذات يوم دفعني فضول طفلة في السابعة من العمر، إلى التجوّل في منزلهم الكبير، الذي سمح بإقامة ابنهم البكر المتزوج حديثًا معهم.

وَجدتُني من غرفة إلى أخرى، هذا هو المطبخ، بجواره غرفة الشابان الثاني والثالث، كتب دراسية، صور لاعبي كرة قدم على الحائط، صور نساء لا أعرفهن، فوضى تعم الغرفة، وإضاءة قوية.

ثم غرفة مختلفة تمامًا عن سابقتها، خافتة الإضاءة، منظمة، نظيفة، رائحتها عطرة، توسطها سرير كبير مرتب، دولاب ملابس احتلت وسطه مرآة، عرفت أنها غرفة العروسين ولا شك، خطر لي أنها ربما تكون غرفة الوالدين، ولكن ما قطع الشك باليقين، صورة كانت بجانب السرير، كانا بطلاها.

اقتربت أكثر منها أتأملها، التصقت بها، كان منظرهما فيها أكثر من جميل، نظرات حب بينهما، طريقة قربهما، جعلتهما كعصفورين، تجمدت أمام الصورة لفترة، ولولا خشيتي دخول أحدهم واتهامي بقلة الأدب، لمكثت في الغرفة أكثر، غادرتها وقد تمنيت الحصول على الصورة، سيكتشفون اختفاءها، ولكن لن يعرفوا من أخذها، ولكن ما موقف أمي مني ومنهم عندما تعرف؟ كنت سأخبرها ولا شك، هذا طبعي معها.

سيطرت الصورة على خيالي، أصبحت عنوانًا لهذه العائلة، وليس للعروسين فقط، عندا أرى مشكلة عندهم، أو أسمع عنها، أكون متأكدة أنها سطحية، فالصورة تؤكد هذا.

التركيز ومراقبة العروسين، أصبح شغلي الشاغل، عند أية زيارة لتلك العائلة، رغبة في أن أرى ما في الصورة متحركًا أمامي.

أقل من عام، شاهدت موقفًا بين الاثنين كاد يتطور إلى الضرب، أهان العصفور عصفورته أمام عائلته وعائلتي أيضًا، توقعت منها ترك المنزل، ولكن وجدتها تعاملت مع الأمر بهدوء وانسحاب.

كدت أدافع عنها، وأهاجمه وأشتمه ولكني لم أستطع، وجدتُني أسأله دون صوت: هل أنت بطل الصورة؟!

44 - رجل مغناطيسي

وصلت إلى مكتبي الفاخر، في الموعد الذي لا أكترث لثباته، السائق يحمل حقيبتي، مدير المكتب يأخذها أو الساعي، تتناقلها الكثير من الأيدي، لا يهمني عددها وصفتها، المهم أن تصل إلى مكتبي سالمة.

طلبت قهوتي الصباحية مع الحلوى، وباشرت أكثر شيء أحبه يوميًا؛ مطالعة صحيفة (البحث عن الوظائف، والموظفين) فبين أوراقها أبحث عن الصيد الذي أعشقه.

هذه حاصلة على الثانوية العامة وترغب عملًا من المنزل، للاتصال تضع رقم والدها، وهذه حاصلة على درجة الماجستير، وترغب بعمل لا يقل الراتب فيه عن كذا، وتضع رقم زوجها، وهذه في الخمسين، تبحث عن عمل في تخصصها الذي قد نسيته ولا شك، في خضم السنين الطويلة التي قضتها في تربية أبنائها، وها هي عندما أنهت مهمتها وشعرت بالملل، بحثت في أوراقها، وتعتقد أن شهادتها المحنطة، ستأتي لها به.

الصيد ليس أمرًا سهلًا، هناك محاذير، وشروط، ونظام أعمل به.

أريد أن يجري كل شيء بهدوء، دون أية مشاكل، يجب أن لا يكون هناك رجل آخر في الجوار، لا رغبة لي أبدا بفضيحة، ولا حتى مجرد

أن يكون هناك احتمال واحد في المئة بأن تحدث فضيحة، لِمَ الدخول في هذه المناطق الخطرة، والغزلان متوفرة في السهول الآمنة؟!

أنا في الخامسة والأربعين، لم أعد أهوى المرتفعات، والفوضى، لكل مرحلة ما يناسبها، يعجبني النظام، خاصة وقد وصلت إلى المنصب الذي أنا فيه، والذي لم أكن لأقبل أبدًا أن أُطرَد منه، أنا من يجب أن يُنهي المشهد، أنا هو المخرج صاحب كلمة cut انتهى.

بعدما انتهيت من إجراءات سفر الشخصية الهامة جدًا، التي أعمل تحت إمرتها، والتأكد بأن كل ما يطمح إليه متوفر في تلك الدولة، التي يرغب في التجول في غاباتها، وصيد الغزلان – ذوات الأربع قوائم– عدت إلى غابتي الخاصة.

ها أنذا في الصفحة الأخيرة من الصحيفة، وها هو إعلان: فتاة تخرجت في كلية التربية، ترغب ....

كل شيء عادي حتى الآن، ولكن الجملة التي أنهت بها الإعلان ليست كذلك: (مستعدة للعمل مُدرِّسة خاصة في أي مكان من العاصمة، ولأي مرحلة)، لها رائحة أشمها جيدًا.

هل تقصد ما خطر لي؟

لم أضع الوقت، اتصلت بها فورًا، وأخبرتها بأن لدي طفلان في المرحلة الابتدائية، أرغب أن تأتي إلى منزلي لإعطائهما الدروس.

رحبت بالأمر، وعندما سألتها بعض الأسئلة الشخصية، أبدت تحفظًا وخجلًا، أخذت تسأل عن الأطفال، وتطلب مني أن أدع والدتهما تتحدث معها لتبرم الاتفاق النهائي.

هنا صارحتها بالحقيقة، فلا أطفال لدي، ولا زوجة أيضًا: أرغب بالتحدّث معك، مقابلتك، أية علاقة تعجبك.

رفضتْ، ولكنها لم تنهي المكالمة مباشرة، بقيت للحظات، فهمتُ السبب سريعًا، إنها تفكر، هناك شيء ما أعجبها، التقطت هذا بأنف ذئب، كما التقطت طيبة وبراءة، من جُمل كثيرة.

بسباق مع الثواني قلت لها: أنت السبب في اتصالي، وسيرِدُك الكثير، سترين.

تفاجأت وسألت عن السبب، أضحكني الأمر، وأخبرتها عن تلك الجملة، التي لها إيحاءات كثيرة، وبين سطور تكاد ألا تكون إلا صريحة.

أنهيت الحوار، وبقيت أنتظر اتصالها، الذي لم يأتِ كما توقعت، بعد عدة أيام، بادرت أنا بالاتصال باللحم، الذي أدخلت فيه النار التي أشعلتها بعض النضج:

حدثيني عن نفسك، لن تزيد العلاقة بيننا عن الكلام، لن تندمي على معرفتي، فأنا من النوع الذي لا أعتقد أنك في يوم ما، فكرت أنه موجود.

الإبهار جاء بنتيجته كالمعتاد، بدأت تتحدث: متخصصة في اللغة العربية، عامان من الانتظار، لم يكونا كفيلان بأن يجعلا لي مكانًا في أية مدرسة حكومية؛ بحثت في المدارس الخاصة، عامان آخران من الانتظار أصاباني باليأس، فقررت أن أعمل في أية وظيفة، من غير اللائق، أن أحصل على مصروف من والدي، ليس أكثر من موظف بسيط.

- مجددًا لم تعثري على شيء.

- كل الوظائف تقريبًا، تطلب مؤهلات لا أحملها، مع أن معظمها لا يتطلبها.

- المدير هو المدير.

- خطر لي أنه سيكون من الجميل والمختلف أن يبحث صاحب العمل عني، فوضعت الإعلان، الذي لم أعرف موعد نشره، كم كنت سعيدة، عندما وردني أول اتصال، اشتريت الصحيفة، وقرأته بفخر، وكأن صورتي منشورة فيها، بصفتي شخصية هامة.

- أنا هي الشخصية المهمة.

ضحكَتْ، معتقدة أني ألقي دعابة، وأكملت: كانت الفرحة تتضاءل بالتدريج؛ بسبب نوعية الأعمال التي بدأت تُعرض علي، فهذا يريدني مسوّقة للسيراميك، وهذا لدهان جديد، وهذه لأدوات التجميل، وهكذا، مما يعني رحلات لا نهاية لها من شارع إلى آخر.

– ترغبين في عمل محدد الأهداف، في مكان مستقر.

– نعم، وعندما وردتني اتصالات بشأن التدريس، كان الإحباط مجددًا بديلًا للفرحة، الجميع يريد مني الذهاب إليه، فهو يخاف من إحضار طفله إلى منزلي.

– وأنت تخافين الذهاب.

– نعم، ما أدراني، ما الذي قد يحدث لي في منزل غريب، أيدتني عائلتي مهما كان العائد المادي، وبعد أيام من الإحباط، جئت أنت راغبًا في التسلية، فزدت حالتي سوء.

فكرة أني شخص مُحبِط، جعلتني أضحك ضحكة مجلجلة وطويلة، راقت لها كثيرًا. صوتك قوي ومميز، وأسلوبك كذلك، أنت ممتلئ بالثقة في نفسك.

– تحليل جيد يا أستاذة، لن أخبرك إن كان صائبًا أم لا، حاليًا على الأقل، هل هناك رجل في حياتك؟

– لا.

– دعينا نكون صديقين إذن، نخرج، ونلهو، ونعيش لحظات حلوة.

– هكذا بكل بساطة؟!

– أنا جريء، أعرف ما أريد، أطلبه منذ البداية، كما أن الحياة أقصر من أن نعقدها.

– أمر جيد، ولكني لست من هذا النوع.

أنهت المكالمة، فلم أكترث؛ في حياتي غيرها، والأهم أني لست من النوع الذي يتألم أو حتى ينزعج من رفض امرأة له، لها ما تريد، ولكني كنت أعلم بأنها لا تريد ابتعادي، هي معجبة بي، منجذبة وبشدة أيضًا، أيام واتصال لم يأتِ، فعدت للمبادرة: هل وردتك اتصالات كثيرة على شاكلة اتصالي؟

– حدث بالفعل، ولكن ليست كثيرة.

– مراوغة أنت، أم صادقة؟

– عليك اكتشاف ذلك.

– سأفعل إذا جلسنا في مكان ما، تعبت من الحديث معك عبر الهاتف، من أي عصر أنت؟!

– يعجبني الحديث معك بهذه الطريقة، صوتك يعجبني.

أن تحدد المرأة ما تريد معي، ليس من طباعي، لا أدري ما الذي جعلني أخالف قاعدتي معها، كنا نتحدث لساعات، أسفرت عن تعلّق كبير بي من جهتها، واستغراب مني لمقدار براءتها، لدرجة أني بدأت أشك في صدقها في كل شيء، شككت أنها تتسلى بي، وتهدف إلى شيءٍ ما، مع أنها كانت تعتقد أن منصبي مبالغة مني.

أكثر ما أثار استغرابي هو جهلها بعالم الرجال، بل وبالحياة، سألتها: هل تستدرجيني لشيء ما؟

– لو طلبت منك شيئًا فلا توافق، اتفقنا؟

– اتفقنا.

– ولدتُ وترعرتُ في قرية صغيرة، وقد أتت عائلتي إلى المدينة، منذ بضع سنوات فقط.

– هذا يشرح الأمر.

– أريد أن أعرف أكثر عنك.

حدثتها عن حياتي، وعن عائلتي، وعملي، من عرفن الحقيقة عن هذه الأمور لا يتجاوز عددهن أصابع يدي، مع أني عرفت منهن ما يتجاوز عدد شعر رأسي.

بدأت تأخذ كلامي على محمل الجد، فأخافها ما عرفته، خافت أيضًا من تعلقها بي، الزواج ليس مرغوبًا عندي، وعلاقة خارج حدوده مرفوضة لديها.

حصولي عليها أصبح تحديًا بالنسبة إلي، إحساسها بالدونية أمامي، جعلني أمتلكها بشكل كامل، شهران نتحدث على الهاتف فقط، أمر لم يحدث معي من قبل، لا بأس، سأصبر؛ التجربة مثيرة.

المرأة بالنسبة لي جسد فقط، لماذا أستمر في هذه العلاقة إذن؟ هل السبب بساطتها مقابل تعقيدي، براءتها مقابل خبثي، سذاجتها مقابل خبرتي؟ لا شك أن جدية الأمر علي، كان العامل لأستمر.

كانت تسأل كثيرًا، تريد معرفة كل تفاصيل حياتي، تصدّق إجاباتي، دون أن يخطر لها أني قد أقوم بالكذب في البعض أو الكل، لم تكن تعلم أيضًا أني كلفت من قام بعمل بحث عنها وعن عائلتها، لم أكن أسمح لامرأة بالتلاعب بي.

تأكدي من صدقها جعلني أستمر في علاقتي معها، والتي كانت نكتة أضحك منها على نفسي، أنا من أنا، لي صديقة لم أرها حتى الآن.

يجب أن أراك، اختاري أنت المكان، هل تخافين مني؟

– لا، أنت تعرف ممن أخاف.

– كم مرة يجب أن أخبرك أني سُلطة؟! من تقصدينهم لو رأونا في علاقة حميمة، لا يستطيعون النطق بكلمة بمجرد رؤية بطاقتي، خوفك وأنت برفقتي إهانة لي، حتى عائلتك لا تستطيع لمس شعرة منك إن كنت بينك وبينها.

وافقت أخيرًا، تناولنا الغداء معًا، وعرفت أن تصوري عنها صحيح، كل لغة الجسد الخاصة بها تؤكد ذلك، حديثي معها كان يعطيها متعة غريبة، مبهورة بكل شيء أقوله، أنا كالمحيط وهي ككأس ماء، رأت بطاقتي العادية وبطاقتي الخاصة، لمعت عيناها كطفلة، بين عالم الأثرياء والفقراء، بين عالم أصحاب السلطة والخاضعين لها سنين ضوئية.

أخبرتها عن الدول التي زرتها، عن طبيعتها، شعوبها، عاداتها الغريبة، والمضحكة، والمخيفة، قصصت عليها بعض مواقف حدثت معي.

انفجرت ضاحكًا عندما قالت: أنت كجهاز تلفاز، وأنا أقوم بدور، ما يطلبه المشاهدون.

أخبرتها أني أحب الجنس بشكل جنوني، أمل من إحداهن بسرعة، جربت من كل الطبقات، والأعمار، مع نساء عاديات، ومع مومسات، أميل إلى السادية، والتصرفات الشاذة كثيرًا، تزوجت مرة، طلبت الطلاق بسبب خيانتي المتكررة، لا أحب الضجّة، طلقتها ولم أعد التجربة مرة أخرى، ولم أفعل؟

أخبرتني أنها تتقزز من كثير مما أخبرها به، ولكنها كانت تستمر في السؤال، بدأت أخبرها المزيد والمزيد، كنت أصف لها ما أفعله مع المرأة بشكل مفصّل، تريد أن تعرف كل شيء، عدم إيقافي أو طلب تغيير الموضوع، إشارة إلى أنها ترغب في التجربة.

– قابلت فتيات فقيرات مستعدات لتقديم الجنس مقابل وجبة.

أبكتها هذه الجملة، لقد عاشت فقرًا شديدًا في مرحلة ما، لم أكن أحتاج إلى السؤال.

– أنا زير نساء، بكل معنى الكلمة، عملي وثروتي ساعداني.

– ألا ترى أن الوقت مناسب؛ لتعلن توبتك؟

– أفكر في هذا أحيانًا، ولكن الإغراءات كبيرة حولي.

تريد الزواج مني ولا شك، سؤالها فضحها، رغم تأكيدها أكثر من مرة عن اقتناعها بالتكافؤ بين الزوجين في كل شيء.

ترغب بي جنسيًا وبشدة، هذا ما أصبحت عيناها تقوله، وابتسامها الخجول أيضًا، رغبتي تفوق رغبتها بمراحل، هي متوسطة في كل شيء، ولكنها أشعلتني.

– عندما تحدثت معكِ كونت لك صورة في خيالي، أجمل من الواقع.

تضايقت من كلامي، ولكنها تظاهرت بالعكس، وطلبت إعطاءها درجة في الجمال، من مقياس، واحد إلى عشرة، التدريس في دمها.

– أعطيك ستة من عشرة.

ألمٌ من الرقم لم تستطع إخفاءه.

– يجب أن تكوني سعيدة، فلو أخذتِ بالاعتبار النساء اللواتي عاشرتهن في حياتي، لوجدت أن ستة، تؤهلك للتخرج في عالمي.

– ألا تفكر في شيء إلا الجنس؟

– الجنس يحكم العالم يا عزيزتي، هذه حقيقة عليك الاقتناع بها، وعليك تجربتها.

صارحتني بانجذابها نحوي، وبأنها تتمنى أن أكون الرجل الأول، ولكن بشرط الزواج، لا مانع لديها من زواج لشهر واحد فقط، هي لا تريد علاقة خارج هذا النطاق، هذا الخارج هو فقط ما أريده، كنت أعدها بأن تبقى عذراء، ولكنها أصرت على موقفها، ثم قالت: عدني بألا تؤذيني؟

– كفي عن السخف.

– أرجوك، وألا تؤذي أحدًا من عائلتي.

– أعدك.

بدأت في كل مقابلة تطلب أن أعدها بنفس الأمر، كان يضحكني هذا في البداية، ولكنه ما لبث أن أصبح مزعجًا، كان عليها أن تعرف أني لو رغبت بأخذها رغمًا عنها لتدبرت الأمر منذ زمن، براءتها أصبحت أمرًا مزعجًا أيضًا.

ما لم يكن يزعجني مهما طلبته، ضحكتي، أمنحها إياها في كل مرة تفعل، كانت تصفني بالفتّاك وشديد الخطورة، وكأني ناقلة نفط.

لم أعد أتحدث معها إلا في الجنس وفنونه، أريد أن تفكر فيه طوال الوقت، أريد انهيارها أمامي، لقد اعترفت بأنها توشك على ذلك.

– أنت غبية، أنا فرصة لن تتكرر، كل من تقيم علاقة معي تطلب مني ما تريد، لست بخيلًا.

– لا أريد الحديث معك مرة أخرى.

– كما تشائين، إذا اشتعلت يومًا ما، أكون بجوارك في غضون ساعات.

خرجت بعض الأمور عن توقعاتي خلال سنوات حياتي، وكانت الأستاذة من بينها، استمرت بالاتصال بي، ولكن بشكل بدأ يقل

تدريجيًا، تختصر كلامها كثيرًا، تتهرب مني إذا فعلت أنا، لم أكن لحوحًا يومًا.

تركتها ونسيتها، ولكنها لم تستطع فعل المثل، اتصال أو أكثر في الأسبوع كان يكشفها، رغبتها تعذبها، تعتقد أن المقاومة فخر، انسحاب كامل.

الهاتف يخبرني بأنها هي، بعد عام على أول اتصال مني.

– هل تتذكرني؟

– بلا شك.

ألم دون سبب في ركبتها اليمنى، ليس هو السبب في اتصالها، بل ما وصلت إليه، بعد رحلة مكلّفة بين الأطباء منذ ما يقارب الستة أشهر، طبيب شخصه بالتهاب في العصب، لم تسفر الأدوية عن تحسن، وثانٍ أكد لها أنه نقرس، أدوية أخرى وألم مستمر، وأحمق أفاد بأنه هشاشة في العظام، دواء وجرعات يومية من الشمس، الألم النفسي أصبح يفوق الجسدي، لا دواء ناجع، ورابع أكد أنه خشونة في مفصل الركبة وربما تحتاج إلى تغييره بعد خمس، أو عشر سنوات.

– هل قمت بعمل رنين مغناطيسي لها؟

– لم أفعل.

– كل من زرتِ لصوص.

– عرفت الأمر مؤخرًا، من طبيب خامس.

– أخيرًا جاء من لديه ضمير، أو على الأقل مسحة منه.

– رحلتي الطبية استنزفت كل مدخراتي، و.....

– كم تحتاجين؟

– تكلفة الأشعة فقط.

– ما زلتِ حمقاء.

– أعرف.

– غدًا، سيكون لديك حجز مدفوع في أفضل مستشفى في العاصمة، وحجز عند أفضل طبيب عظام أيضًا.

صوتها الباكي شكرني بشدة، ثم قالت: توقعت أن ترفض.

– لم تفهميني إذن، ولكن لا بأس، قطعت شوطًا داخل عقلي لم تفعله امرأة يومًا ما.

45 - أواخر الشتاء

لم تكن حالة وفاة عادية، تلك التي تلقّت أمي خبرها من أبي.

زوجان ماتا سويًا، وتركا ثمانية أبناء، أكبرهم في السابعة عشر، وأصغرهم لم يكمل عامًا بعد.

لم تصدّق أمي الأمر في البداية، لن يكون أبي مازحًا، ولكنه بالتأكيد مبالغ، لا شك أن أحدهما على الأقل، في المستشفى.

أبي: الخبر أكيد، أخذته من خال الزوجة مباشرة.

هذا الخال أحضر الأطفال عنده، هو قريبهم الوحيد، وقرر استقبال العزاء فيهما في منزله، لا أحد حتى الآن يعرف مصير الأطفال.

فيلم هندي حزين، قصة وفاتهما، أشعلا نار المدفأة، وأغلقا باب غرفتهما وشباكها، قيلولة بعيدة عن ضجة الأطفال، مرت الساعات، الوالدان لم يخرجا، الأولاد يطرقون الباب، يصرخون، الباب مغلق من الداخل.

يأتي أكبرهم من الخارج، ليجد إخوته باكين، ينادي على والديه بقوة مع طرقات مجنونة، يحاول كسر الباب بلا فائدة، يتصل بالشرطة، تجدهما مختنقين داخل الغرفة بفعل التدفئة.

صدمة الأكبر هي الأصعب أم الأصغر، مسألة يصعب تحديدها.

مصير الأولاد، كان مجال حديث الجميع خلال أيام العزاء، قسوة ما حدث عليهم، غباء الوالدين الذي أودى بحياتهما.

دخان يصدر عن العائلة المنكوبة بعد انتهاء العزاء، هل مصدره نار، أم سراب؟ أمر كان على الشرطة البحث فيه.

الابن الأكبر على خلاف حاد مع والديه، فاشل في كل شيء، رفقة سيئة، شك في تعاطيه المخدرات، شك في قتله لهما.

فهرس

الإهداء 7
المقدمة 9
1 – جدار برلين 11
2 – رصاصة 13
3 – ثلاثة 16
4 – خالي الدسم 21
5 – تقاعد 26
6 – زوجة الطبيب 28
7 – مفقود 32
8 – أمير 44
9 – صوت 48
10 – جريمة 49
11 – النيل الأزرق 53
12 – جلطة 56
13 – هذا الشيء أحبه 59
14 – أزرار 60
15 – ابن الجيران 63
16 – تاريخ الصلاحية 65
17 – منزل العجوز 69
18 – أنا مدمنة 70
19 – ابنة الدبلوماسي 74
20 – خيال علمي 76

21 – ديمقراطية 79
22 – توصيل (دليفري) 81
23 – بريق الألماس 84
24 – مخطوفة 88
25 – الضحية والجلاد 93
26 – المدير 95
27 – لحم مفروم 102
28 – ابتزاز 106
29 – دماء 109
30 – 66 كيلو غرام 111
31 – كتالوج 115
32) Snow white – بياض الثلج) 119
33 – معركة 122
34 – عيون المها 123
35 – خلف الجدران 130
36 – صديقة العمر 133
37 – حيرة تفاحة 138
38 – رسالة من تحت الماء 140
39 – خمسون عامًا 143
40 – كلوركس 147
41 – زواج جماعي 149
42 – نعم 152
43 – صورة عائلية 153
44 – رجل مغناطيسي 155
45 – أواخر الشتاء 168